جلال الدين السيوطي

(-٩١١هـ)

وجهوده البلاغية

إعداد
عمر راشد حسن خليل

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي

قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في
اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب
الجامعة الأردنية

كانون الثاني 2002

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٠٠٢/١/١٥

أعضـــــــاء لجنـــــــة المناقشـــــــة	التوقيع
الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علـــي ، رئيســا	
الأســتاذ الدكتــور محمــود الســــمرة، عضـــوا	
الأســتاذ الدكتــور سـمير استـيتيه، عضـــوا	
الدكتــور محمــــود جفـــال الحديــــد،عضـــوا	

الإهداء

إلى سبب الحياة وغايتها

أمي الغالية

وإلى روح أبي الطاهرة

الشكر

أتقدم بجزيل الشكر ووافر العرفان إلى أستاذي

الدكتور محمد بركات أبو علي لما أبداه من صبر علي

وتحمله للظروف الصعبة التي رافقت الرسالة ولم يبخل

خلالها بتقديم النصح والمشورة كيما تخرج الرسالة على

أكمل وجه

والشكر كل الشكر لأساتذتي الأفاضل

الأستاذ الدكتور محمود السمرة

والأستاذ الدكتور سمير استيتيه

والدكتور محمود الحديد

على قبولهم مناقشة هذا العمل وتصويبه

المحتويات

الملخـــــص

جلال الدين السيوطي (- ٩١١هـ) وجهوده البلاغية

إعداد

عمر راشد حسن

إشراف

أ. د محمد بركات أبو علي

يُعد الإمام جلال الدين السيوطي من الموسوعيين القلائل الذين ساهموا في إعــادة بناء التراث العربي بما خلفه من مراجع وكتب في مختلف فنون المعرفة الإنسانية، فشكّل بذلك مكتبة تراثية زاخرة تغني القارئ وتنمي معرفته.

وحظيت البلاغة العربية بجانب واسع من تآليفه إذ ضمنها عدة كتب توزعت بيــن التأليف المتخصص في البلاغة من مثل "عقود الجمان" وشرحها، و "البديعيـــة" و "جنـــي الجناس" و "إتمام الدراية" والكتب التي بحث البلاغة فيها ضمن منظومة إعجاز القـــرآن الكريم وعلومه كـ "الإتقان في علوم القرآن" وغيره من كتب الإعجاز.

وجاء هذا البحث ليدرس الجهد البلاغي للسيوطي ويقدم مباحثه وطريقـــة تناولـــه للبلاغة ويبرز جوانب التميز ومواطن القوة والضعف فيه.

ووصولا إلى هذه الغاية فقد ظهر البحث في تمهيد وثلاثـــة فصـــول: خصصـت التمهيد فيه للتعريف بالسيوطي نشأة وبيئة، وقدمت خلاله تعريفا بـــالكتب التـــي تنـــاولت مباحث البلاغة تفصيلا أو في جزء منها.

وأفردت الفصل الأول للبحث في مصادر السيوطي البلاغية ووجدت أنها متنوعـة عديدة فوقفت عند أبرز الكتب التي أثرت بشكل واضح في منهجية الكتابة البلاغية عنده.

ودرست في الفصل الثاني علوم البلاغة العربيـــة عنـد السـيوطي فـي كتبـه المتخصصة وأهمها كتاب "شرح عقود الجمان" فتناولته بـــالتحليل والمناقشـة وأبــرزت جوانب البلاغة فيه من معان وبيان وبديع.

وناقشت في الفصل الثالث البلاغة القرآنية عند السيوطي كما تظهر من كتبه فـــي علوم القرآن وإعجازه ووقفت على تميزه في بحث هذا الجانب من البلاغة على المسـتوى التنفيذي والتحليلي.

وختمت البحث بخلاصة بينت فيها ما أبرزه البحث من نتائج حول الجهود البلاغية للسيوطي.

وكشفت الرسالة عن منحى جمعي في تأليف السيوطي مع تميز في بحث البلاغـــة القرآنية والبلاغة التطبيقية.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

جفت الأرض العربية وأصابها القحط الفكري بعد أن دهمتها المصائب وحلت بها النكبات إلى أن سخر الله لها رجالا بثوا في عروقها ماء الحياة فاهتزت وربت وأنبتت من فنون المعرفة رياضا ما زالت بغية للطالبين وقبلة للمرتادين.

وكان ممن ساهموا في هذا البناء المعرفي الإمام جلال الدين السيوطي (-٩١١هـ) المفكر الموسوعي الذي اتسعت منابع معرفته وتعددت وجوه تأليفه، وقد ترجم لنفسه في"حسن المحاضرة" مسجلا جهوده العلمية التي بلغت ثلاثمائة كتاب في معظم مناحي التأليف .

وبهذا العلم الواسع والعطاء الثر أضحى السيوطي حقلا غنيا أغرى الكثيرين بارتياده والقطف من ثماره؛ فتعددت الدراسات والمؤلفات التي تتناول الجوانب المختلفة لديه مؤرخا ومفسرا ولغويا وأديبا .

ولا يقل الجانب البلاغي عند السيوطي أهمية عن باقي جوانب معرفته وذلك من خلال مؤلفاته المتخصصة كـ "عقود الجمان " و شرحها و "البديعية " و"جنى الجناس " وهي مؤلفات استغرقت علوم البيان والمعاني والبديع ، لكنها لم تحظ بالدرس والتحليل والتقييم مع ما فيها من مادة علمية تستحق المناقشة والتوقف لبيان المنهج وطريقة التناول.

ولم يقف البحث البلاغي لدى السيوطي عند حدود التأليف المتخصص بل نرى أن كثيرا من اللفتات البلاغية التي تغني الدرس البلاغي قد تناثرت عبر تضاعيف كتبه اللغوية والأدبية وهي مباحث جديرة بالعرض والمناقشة .

وعضد ذلك كله بحث متميز للإعجاز البلاغي في القرآن حققه السيوطي من خلال العديد من كتبه وأهمها " الإتقان في علوم القرآن " ، و "معترك الأقران في إعجاز القرآن" و"التحبير في علم التفسير " ، وفيها أبرز السيوطي مفهومه للبلاغة القرآنية، وبحث متقصيا مناحي الإعجاز البلاغي للقرآن وهي دراسات من حقها أن تحظى بالتناول العلمي لمسائلها وبيان تميزها ليفيد منها دارسو البيان القرآني ولتوسع مدارك البحوث الإعجازية.

من هنا تظهر أهمية الجانب البلاغي لدى السيوطي الذي يعكسه هذا الكم من المؤلفات المعنية بالبلاغة وهو كم حقيق بالدرس حري بالتحليل قمين بالتناول ما استطاع أن يتقبل التناول، وتسعى هذه الدراسة جاهدة إلى إبراز هذا الجانب في طرح علمي واف يتخذ من التحليل والتقييم والاستنتاج المعلل أدوات درس وبحث.

كما تحاول هذه الدراسة أن تجيب عن تساؤلات عدة منها :

- كيف يتناول السيوطي علوم البلاغة في مؤلفاته ؟
- ما أبرز مسائل البلاغة لديه، وما مصادرها ؟
- كيف يعرض السيوطي لمسائل الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم؟

وتطمح هذه الدراسة أن تقدم مادة علمية مفيدة بعرضها الجانب البلاغي عند السيوطي بوصفه كاتبا تراثيا اجتمعت بين يديه مادة بلاغية وفيرة استطاع أن يستوعبها ويخرجها للناس بطريقته الخاصة، وتبقى قراءة التراث البلاغي الخطوة الأولى لمن ينشد إحياء البلاغة وتجديدها في هذا العصر .

وقد حظي السيوطي بجملة من الدراسات التي تناولت حياته وجهده التأليفي كما تناولت في بعض منها بالتحليل والتقييم جانبا من جوانب تميزه كالجانب اللغوي أو النحوي أو الكلامي، إلا أن الجانب البلاغي عنده لم ينل تلك الحظوة مع أنه لا يقل أهمية عن باقي العلوم التي عني بها.

ولعل من أبرز هذه الدراسات التي تناولت السيوطي ولها مساس بجانب من جوانب البحث كتاب "البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران" للسيوطي اختيار السيد الجميلي، فقد عمد المؤلف في هذا الكتاب إلى انتقاء بعض موضوعات

البلاغة من كتابي السيوطي "الإتقان" و "المعترك" وقدمها بلغة السيوطي نفسه دون أن يتوقف عند هذه المسائل بالدرس والمناقشة.

ومن الدراسات أيضا كتاب "السيوطي النحوي "لعدنان سليمان وهي رسالة دكتوراه عرض فيها الباحث الجهد النحوي الذي قام به السيوطي، وقدم لرسالته بتمهيد وفصلين أفردهما للحديث بشمولية عن عصر السيوطي وآثاره العامة، وهي مقدمة تصلح مرشدا وهاديا لكل من ورد نبع السيوطي .

ومنها كتاب " جلال الدين السيوطي ومسيرته العلمية ومباحثه اللغوية" لمصطفى الشكعة، وفي هذا الكتاب أرخ المؤلف لمسيرة حياة السيوطي وعصره مبرزا المكانة العلمية العالية التي كان يمثلها من حيث كونه كاتبا موسوعيا، ثم وقف عند المباحث اللغوية التي قام بها السيوطي .

وتفترق هذه الدراسة عن سابقاتها بأنها تحاول أن تقدم تصورا للمادة البلاغية بشقيها النظري الكلامي والتطبيقي الإعجازي كما وردت في مظانها لدى السيوطي، مبرزة جهده في المنهج والتناول .

ولخدمة هذه الغاية فقد انتظمت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة:

- تناول الباحث في التمهيد البحث في عصر السيوطي البلاغي وبيئته العلمية .
- وخصص الفصل الأول لدراسة مصادر السيوطي البلاغية ووقف فيه على أبرز العلماء والمؤلفات التي كان لها أثر واضح مميز في مؤلفاته.
- وأفرد الفصل الثاني لعرض المادة البلاغية عند السيوطي كما تظهر في كتبه، ووقف على مباحثها محللا ومعقبا .
- وجاء الفصل الثالث مخصصا لدراسة البلاغة القرآنية عند السيوطي وتدور محاوره حول تفصيله للتوظيف البلاغي في القرآن من حيث المصطلحات والأغراض والشواهد.

وخلصت من ذلك كله إلى خاتمة عرضت فيها لأهم نتائج البحث .

وبعد ...؛

فأقر بأن بحثي قد واجه الكثير من المصاعب كان منها ما يتعلق بطبيعة البحث ومنها ما يتعلق بظروف صحية مررت بها أثرت بشكل ما على اتساقه وكماله ،لكني مع ذلك حاولت أن أتلمس له دروبه، وأجلي طريقه بكل الجد والجهد ليخرج معافى من العثرات سليما من الزلات والعيوب، وأسأل الله أن أكون قد وفقت في ذلك مع يقيني المطلق أن النقص صفة إنسانية والعثرة سمة بشرية وعذري في ذلك أنني قاربت واجتهدت.

والله أسأل أن يجنبني الخطأ والزلل.

"رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي"

التمهيد

التمهيد:

بيئة السيوطي وعصره

السيوطي النشأة والعصر

حظي السيوطي باهتمام الكثيرين من الدارسين، وتوالت ترجماته[*] في العديد من كتبهم قديماً وحديثاً، وكان السيوطي أول البادئين في الترجمة لنفسه، وذلك في أكثر من كتاب ولعل أبرزها (التحدث بنعمة الله)، و (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة).

والسيوطي هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر الكمال بن محمد السيوطي، ولد في القاهرة سنة تسع وأربعين وثمانمائة للهجرة، وقد اكتنفت مولده حادثة طريفة ترددها المصادر، إذ وضعته أمه بين[١] رفوف الكتب فأطلق عليه أهله ابن الكتب وكان أن صدق هذا اللقب فصار حقاً ابناً للكتب أفنى عمره في مطالعتها وتحريرها.

وابتدأ السيوطي حياته العلمية باكراً، مستفيداً من وسطه الأسري الذي وفر له أسباب العلم والتعلم، فقد حرص والده على أن ينشأ النشأة العلمية الصحيحة، فكان يأخذه إلى أكبر المجالس العلمية في زمانه، من مثل مجلس الحافظ ابن حجر[٢].

وساعد ذكاء السيوطي ونباهته في سرعة تلقيه العلم، فقد حفظ القرآن الكريم وهو دون الثامنة ثم حفظ العمدة ومنهاج النووي وألفية ابن مالك ومنهاج البيضاوي وعرض ذلك على علماء عصره وحصلت له إجازة بذلك منهم[٣].

(*) انظر ترجمته في:

السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٦٥/٤، العيدروسي، تاريخ النور السافر، ص٥٤، الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، ص٣٣٧، ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨٧/٨، بديع اللحام، الإمام الحافظ جلال الدين وجهوده في الحديث وعلومه، ١٩٥/١١، نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ٢٢٧/١، جرجي زيدان، تاريخ آداب العربية، م٢/ج٢٩٣/٣، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، ٣٥٥/٣، ندوة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القسم الأول ٣٣/١٣، ندوة أيسيسكو حول الإمام السيوطي، المحور الأول ١٧٥/١٥.

(١) العيدروسي، محي الدين، تاريخ النور السافر، ص٥٤.

(٢) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨/ ص٥٢، نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٢٦.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٣٣٦، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٥٢، السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ٦٩

وبدأ السيوطي الاشتغال بالعلم سنة أربع وستين وثمانمائة، وأجيز بتدريس العربية سنة ست وستين وثمانمائة، ومعنى هذا أنه شب عن طوق الكسب العلمي وهو في سن السابعة عشرة وبين هذين التاريخين درس الفقه والنحو على جماعة من الشيوخ، كما بدأ بالإفتاء مع مستهل سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وعقد إملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة[١].

وقد تعددت مصادر الثقافة السيوطية فلازم أكثر شيوخ عصره، وأخذ عنهم مختلف فنون الثقافة مع حرصه الشديد على المتابعة الشخصية، إذ اهتم بالبحث والتحقيق اهتماماً بالغاً[٢]، وقد صرح بذلك إذ يقول: "ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالي بما هو أهم وهو قراءة الدراية"[٣].

وعزز ذلك بقيامه بالعديد من الرحلات طلباً للعلم وقد اجتمعت لديه في أثناء هذه الرحلات براءات وإجازات كثيرة بالتدريس[٤].

وهكذا استمر السيوطي ينهل من معين المعارف والعلوم حتى توافرت لديه أرضية صلبة من المعرفة أهلته ليبحر في مجال التأليف ويحلق في آفاق الكتابة والتصنيف، فشرع في تأليف الكتب وهو ابن السابعة عشرة حين ألف شرح الاستعاذة والبسملة، وعرضه على شيخه علم الدين البلقيني فكتب له تقريظاً عليه[٥]، وتواصلت تآليفه وكتبه حتى بلغت عدتها خمسمائة مؤلف أو يزيد، وهو ما جعل الكثيرين يصفونه بالمفكر الموسوعي أو عمدة المفكرين الإسلاميين وهو بحق ظاهرة علمية أدبية متميزة بين أقرانه، في أعلام القرنين التاسع والعاشر الهجريين من حيث تنوع ثقافته ووفرة كتبه ونفاسة محتواها والعلوم التي رزق التبحر والإجادة فيها كما ذكر عن نفسه[٦].

ولم يتوقف السيوطي عن العطاء الفكري والعلمي بل إنه اعتزل الناس عند بلوغه الأربعين وتجرد للعبادة والتأليف إلى أن وافته المنية بعد مرض دام سبعة أيام، في التاسع عشر من جمادى الأول سنة ٩١١هـ.

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٣٣٨.

(٢) عدنان سليمان، السيوطي النحوي، ص٦٩.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ٣٣٩.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٥٢.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٣٢٧/١.

(٦) السيوطي، المصدر نفسه، ٣٨٨/١.

الحالة السياسية والعلمية:

تعدّ البيئة والحالة السياسية للإنسان من العناصر الهامة فتقوم بدور فاعل في توجيه مسيرته العلمية والثقافية وخاصة لأولئك الذين يؤدون دوراً بارزاً في عصرهم.

ونشأ السيوطي وترعرع في مصر في عصر دولة كان حاكمها وجيشها من مماليك مشتريات ، وقد عاصر من حكم دولة المماليك دولة الجراكسة/ المماليك البرجية/ وهي دولة عسكرية متعسفة وعايش من سلاطينها ثلاثة عشر سلطاناً، اتسمت فترات حكمهم بالاضطراب والفوضى والفتن الداخلية والخارجية.

ولم يكن السيوطي بمعزل عن هذا الاضطراب؛ فعندما جاء السلطان طومان باي إلى الحكم سنة ٩٠٦هـ صمم على قتل السيوطي ولذلك اضطر إلى التواري عن الأنظار طيلة مدة حكم هذا السلطان [١]، ومن ثم انعزل عن الناس تماما أيام خلفه الملك قانصوه الغوري.

ومع كل هذا الاضطراب فإن السيوطي استطاع أن يتبع وسط هذه الظلمة ،مع ثلة من العلماء استطاعوا أن يجعلوا هذا العصر المظلم سياسياً عصر نور وإشراق علمي. حيث أضحت مصر قبلة العلماء وفضاء العلم والتعلم بعد سقوط حاضرة الخلافة الإسلامية بغداد وتدمير مخزون التراث العربي فيها، وأوجد السلاطين المماليك البيئة المناسبة لإحياء التراث؛ فنمت مراكز العلم ودور المعرفة ،وانتشرت المكتبات والمدارس والخوانق والأربطة والزوايا، ولم يبخل أولاء السلاطين بالمنح والعطايا للعلماء وتشجيعهم حتى غدت مصر ميداناً واسعاً لنشاط علمي كبير يدل عليه ذلك التراث الضخم من الموسوعات التي خلفها علماء ذلك العصر.

وكان لفيف من أولئك السلاطين المتأخرين ذوي ثقافة عالية يحبون العلماء والأدباء كما كانت لهم نتاجات أدبية ،وقد شرح السيوطي بعض موشحات السلطان الغوري في كتاب سماه "النفح الظريف على الموشح الشريف".

وهكذا فإن المتتبع للنشاط العلمي في هذا العصر يجد نفسه أمام ثورة علمية واسعة

---

(١) محمود رزق، عصر السلاطين والمماليك، ج١/٨.

تتمثل في تلك الجمهرة من أساطين العلم والمعرفة الذين برزوا في هذه الحقبة، واستطاعوا أن يقدموا خدمة جليلة للثقافة العربية الإسلامية تتمثل في عملين:

الأول: الحفاظ على التراث العلمي والأدبي.

الثاني: تجديد هذا التراث وتنميته[١].

وليس أدل على ذلك من عناوين الكتب والموسوعات التي خلفها علماء هذا العصر وشملت مختلف فنون المعرفة وضروب العلم ضامةً بين دفاتها علوم الأوائل وما استجد من معرفة عصرية.

على أن ذلك لا يمنع من تقرير حقيقة مفادها أن كثيراً من مصنفات هذا العصر جاءت تعاليق ومختصرات وذيولاً وشروحاً لما سبقها من كتب، وكان جل اعتماد مؤلفيها على النقل والجمع ،ولا تسلم من ذلك كتب السيوطي[٢]، وانتشرت ظاهرة التقليد بين الكتّاب حتى في تسمية الكتب كما برزت بشكل لافت ظاهرة المتون والشروح والإكمالات والتذييلات.

وعلى الرغم من ذلك فقد شهد العصر منارات للعلم عز نظيرها كانت وما تزال تهدي السائرين في دروب المعرفة ولعل من أبرز هذه المنارات ابن خلدون في مقدمته والفيروز أبادي في قاموسه المحيط والمقريزي في خططه وآثاره وابن حجر والقلقشندي.

مؤلفاته:

اتقن السيوطي استغلال ظروفه وتذليل صعاب أيامه ، حتى عد أغزر المؤلفين المصريين في العصر المملوكي بل لعله أغزر كتّاب العربية قاطبة[٣]. وتنوعت ضروب التأليف لدى السيوطي؛ فشملت المعارف والعلوم ولم يكد يترك فناً من فنون المعرفة إلا وكتب فيه والعلم الوحيد الذي لم يؤلف فيه هو علم الحساب وكان يقول عنه: "أما علم الحساب فهو أعسر شيء

---

(١) عدنان سليمان ، السيوطي النحوي، ص٣٧ ،سعيد عبد الفتاح، مصر في عصر دولة المماليك، ص ٦٨٢.

(٢) عبد الوهاب ،حمودة، صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي، ص٦١.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ٩، ص٢٠٧.

علي وأبعده عن ذهني وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلاً"[١].

وتفاوتت كتبه في الحجم والقيمة فمنها ما يتجاوز عدة مجلدات مثل "الجامع الكبير في الحديث" ،و"الدر المنثور في التفسير المأثور"، وغيرهما ومنها ما لا يتجاوز الورقة أو الورقتين مثل "نظام البلور في أسامي النسور"،و "التبري من معرة المعري".

كما أن بعضها كانت من أهم الكتب التراثية قيمة وفائدة ككتاب "الاقتراح في أصول النحو"، و"الإتقان في علوم القرآن"، وغيرهما، ومنها كتب لا يعتد بها وألفها كما يقول،على طريقة البطالين مثل "بلوغ المآرب في قص الشارب"، و"الطرثوث في فضل البرغوث".

وتتميز تآليف السيوطي بالموسوعية، وهو شديد العناية بحشد الروايات والأخبار التي يجمعها في صعيد واحد ليجعل منها مؤلفاً متسقاً جامعاً لشتات تلك النصوص والأخبار[٢]، كما كان يهدف من تأليفه إلى تكوين مدرسة ثقافية متكاملة للفنون العلمية التي يتناولها بالبحث وهذه الحقيقة ظاهرة في مؤلفاته الكثيرة فكل مجموعة منها تمثل فنا متكاملا بحث فيه كل ما يندرج تحت ذلك الفن من المسائل الجزئية والكلية[٣].

ويبدو أن السيوطي أراد أن يلاحق القارئ أينما ذهب فيؤلف له الشرح والاختصار والتذييل والنظم على كتاب عمدة حتى يصيره سيوطياً لحماً ودماً[٤].

ولا يعنينا كثيراً في هذا المقام البحث في عدد مؤلفاته وأسباب اختلاف تعدادها أو في محاولة مناقشة الخطوط العامة للتأليف ومدى جديتها وتميزها، ذلك أن ما يعنينا المرور سريعاً هو تعريف بكتبه التي لها علاقة بالبلاغة وهذه الكتب تقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولها: كتب متخصصة تتناول بعض الموضوعات البلاغية.

ثانيها: كتب تتعلق بالقرآن الكريم من تفسير وتأويل وعلوم القرآن وإعجازه.

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٣٣٨.

(٢) عدنان سليمان، السيوطي النحوي، ص١٠٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦٨.

(٤) الدنراوي، أدب السيوطي، ص٣٩.

ثالثها: كتب البلاغة الصرفة.

أولاً: كتبه التي تتناول بعض الموضوعات البلاغية:

لعل أبرزها "المزهر في علوم اللغة" ، ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي ألفها السيوطي وأعظمها فائدة، وقد رتبه ونظمه على نسق أبواب الحديث[١]، وقد عرض فيه لما يمكن أن يكون منهجاً كاملاً لرواية اللغة.

وضم كتاب المزهر الكثير من الموضوعات التي تتناول مختلف علوم اللغة وبلغت خمسين نوعاً بينها مسائل تدخل ضمن ميدان البلاغة العربية، وهي الفصاحة، والحذف، والاختصار، والحقيقة والمجاز والاستعارة والعام والخاص[٢]، وكذلك بحثه للمشترك والأضداد والمترادف الذي يدخل فيما يراه البعض من المجاز على وجه من الوجوه، وكذلك وقوفه على الأمثال التي تتصل بالاستعارة التمثيلية. وتميز تناوله للحقيقة والمجاز باستقصاء جيد لتعريف الحقيقة والمجاز وجهات المجاز وعلام يدخل المجاز والمجاز لأجل اللفظ والمجاز لأجل المعنى والمجاز خلاف الأصل وبم يعرف الفرق بين الحقيقة والمجاز، واشتمال اللغة عليهما وغير ذلك، وكان في بحثه يعتمد على ما قاله اللغويون الذين سبقوه مكتفياً بالنقل دون مناقشة أو تحليل.

ومن كتبه العامة أيضاً: "الحاوي للفتاوي" وهو عبارة عن مجموعة من الفتاوي أجاب السيوطي بها عن أسئلة وجهت إليه في مختلف الموضوعات في الفقه، وعلوم التفسير، والحديث والأصول والنحو والإعراب وغيرها[٣]، وهو عند الإجابة عن السؤال الموجه إليه يذكر ما ورد في المسألة من أجوبة وبعد أن يعرضها يدلي برأيه فيها.

أما ما ورد حول البلاغة من أسئلة فثلاثة فقط:

الأول: إطلاق العام وإرادة الخاص أحقيقة أم مجاز[٤]

(١) السيوطي، المزهر، ج١/ص١.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٨٤، ٩٧، ٣٣٦، ٣٤٥

(٣) السيوطي، الحاوي للفتاوي، ٣/١.

(٤) المصدر نفسه، ٥٥٢/٢.

الثاني: هل ينطبق على مجاز الزيادة والنقصان تعريف المجاز بأنه اللفظ المستعمل فيما وضع له لعلاقة أم لا [١].

الثالث: أن العلاقة في مثل قوله تعالى (وجَزاءُ سيئة سيئةٌ) (الشورى/٤٠) ما هي؟ ومن أي الأنواع المذكورة في العلاقة؟

ومن كتبه أيضاً "إتمام الدراية لقراء النقاية"، وهو شرح لمختصر وضعه السيوطي اسمه، النقاية، ضم خلاصة أربعة عشر علماً راعى فيها الاختصار والإيجاز وضمنه ما احتوته الكتب الطوال بحيث يستغني الطالب به عمن سواه.

أما ما يتصل بالبلاغة منه فقد بحث فيه علوم البلاغة من معان وبيان وبديع بلغة سهلة وأسلوب مبسط دون إطالة في شرح أو تحليل ويتميز هذا الكتاب بخلوه من الإحالات فهو يعرض موضوعاته باعتباره ملخصا تعليميا يهدف إلى إيصال المعلومة دون إرهاق القارئ بذكر الآراء والاختلافات ويصدق عليه وصف الكتاب المنهجي التعليمي.

ثانياً: كتب الدراسات القرآنية:

حظيت الدراسات القرآنية بعناية خاصة، في التأليف السيوطي فكتب في التفسير والتأويل والإعجاز وعلوم القرآن، ولا تخفى العلاقة الوطيدة بين علوم العربية وعلوم القرآن، وهذا التداخل لا يخلو منه أي كتاب تناول الدرس القرآني ولعل من أبرز هذه الكتب التي ألفها السيوطي ولها مساس بالجانب البلاغي: كتاب "تناسق الدرر في تناسب السور" وهو يركز على بيان الارتباط بين السور القرآنية ويحاول السيوطي فيه تقرير قاعدة لترتيب سور القرآن وهي أن تكون كل سورة تفصيلاً لإجمال ما قبلها وشرحاً له وإطناباً لإيجازه ويتعامل السيوطي مع النص القرآني باعتباره نصاً محكم البناء متلاحمه، يعتمد في ذلك على ادخال مجموعة من العناصر في سورة معينة، ثم تقع تنميتها في سورة لاحقة[٢].

وقد تتبع السيوطي في هذا الكتاب الأسلوب القرآني وتلمس عناصر البلاغة والإعجاز فيه وسأقف على بعض ملامح هذا الكتاب البلاغية، عند تناول البلاغة القرآنية.

(١) السيوطي، الحاوي للفتاوي، ٢/٥٥٢.

(٢) السيوطي، تناسق الدرر، ص٦٥.

ومنها كتاب "الإتقان في علوم القرآن"، ويعد هذا الكتاب من أبرز الكتب التي ألفت في هذا المجال ووصفه الأستاذ المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم، بأنه الحلقة الذهبية في سلسلة كتب الدراسات القرآنية، وأحسنها تصنيفاً وتأليفاً وأكثرها استيعاباً وشمولاً جمع أشتات الفوائد ومنثور المسائل مالم يجتمع في كتاب(١).

وقد بلغت الأنواع التي تناولها السيوطي في كتابه ثمانين نوعاً في مختلف مناحي علوم القرآن، أما ما يتعلق بالبلاغة منها فهي بيان الموصول لفظاً المفصول معنى، ومقدمه ومؤخرة، وحقيقته ومجازه، وتشبيهه واستعاراته وكنايته وتعريضه والفرق بين الكناية والتعريض والحصر والاختصاص والابتكار والإطناب والخبر والإنشاء وبدائع القرآن وأمثال القرآن وغيرها.

ونلحظ من خلال هذا التناول تحرراً من الالتزام بالترتيب الموضوعي لعلوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع) مع أنه تنقل بينها جميعا كما أن بحثه لهذه الموضوعات البلاغية كان أحسن منه في الكتب الأخرى لأنه تحرر قليلا من سيطرة منهج القزويني ؛وعلة ذلك كما يرى الدكتور أحمد مطلوب أنه لم يكن يبحث في البلاغة حين ألف "الإتقان وإنما كان يؤلف كتاباً في علوم القرآن وبذلك ابتعد عن منهج السكاكي والقزويني وانصرف إلى ما في كتاب الله عز وجل من علوم وفنون.

أما منهجه في تناول هذه الأنواع البلاغية فيقوم على أساسيين(٢):

أولهما: أن يذكر تعريفات النوع البلاغي التي ذكرها علماء البلاغة والأدباء قبله.

ثانيهما: أن يذكر تقسيمات ذلك النوع البلاغي ويستشهد عليه بآيات كريمة.

ومن كتبه أيضاً "معترك الإقران في إعجاز القرآن"، وهو من مؤلفاته التي خاض فيها موضوع إعجاز القرآن، ويعد خلاصة لكل ما قيل حول الموضوع في عصره، ويذكر مؤلفه أنه لم يترك كتاباً في الإعجاز وقع في يده إلا ذكره، وفي ذلك يقول: " على أني ليس لي فيه مزية

(١) السيوطي، الاتقان، ٧/١.

(٢) أحمد مطلوب، مناهج بلاغية، ص٣١٢

وإنما الفضل لمتقدمي علماء الأمة المحمدية...، فأودعت فيه فنون العلوم على تنوعها ومررت فيه على رياض التفاسير ... ،وختمته بأقوال كلية فلخصت سبائكها وفوائد مهمة سبكت تِبْرها ... "(١).

وهو عندما يتحدث عن وجوه الإعجاز فإنه يذكر من ألف في الموضوع وأسماء الكتب التي تناولته بالبحث وقد ذكر قسماً من أولئك العلماء في مقدمة كتابه حيث قال: "وقد أفرد علماؤنا رضي الله عنهم بتصنيف إعجاز القرآن وخاضوا في وجوه إعجازه كثيراً منهم الخطابي والرماني والزملكاني والإمام الرازي وابن سراقة، والقاضي أبو بكر الباقلاني وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه كما قال السكاكي"(٢).

وإنه لمما يعجب القارئ تلك الثقة التي يبديها السيوطي ويعلمنا فيها أصول الأمانة علمية؛ إذ يذكر أنه متطفل على من سبقه فيقول: "فإذا علمت عجز الخلق عن تحصيل وجوه إعجازه فما فائدة ذكرها لكنا نذكر بعضها تطفلاً على من سبق فإن كنت لا ممن أجول في ميدانهم ولا أعد من فرسانهم لعمرك إن دار كريم بفناء الدنيا تتحمل من تطفل عليه فكيف بأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين"(٣).

وقد أوصل السيوطي وجوه الإعجاز إلى خمسة وثلاثين وجهاً ومما يتعلق من هذه الوجوه بموضوعات البلاغة وعلومها:

وقوع الحقائق والمجاز فيه ، وتشبيهه واستعاراته ووقوع الكناية والتعريض فيه وإيجازه في آيه وإطنابه في أخرى ووقوع البدائع البليغة فيه واحتواؤه على الخبر والإنشاء.

والسيوطي بهذا يدخل علوم البلاغة ضمن وسائل الكشف عن إعجاز القرآن الكريم.

ومنها كذلك كتاب "التحبير في علم التفسير"

وهو من كتب السيوطي ضمن دائرة علوم القرآن ويشتمل على معلومات كثيرة

---

(١) السيوطي، معترك الأقران، ١/ص ل.

(٢) المصدر نفسه، ج١/٥.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ١١.

ومتنوعة في علوم التفسير والحديث والقراءات واللغة والبلاغة وغيرها.

ويعد كتاب "التحبير" أقدم تأليفاً من كتابي "الاتقان في علوم القرآن" و"معترك الأقـــران" في إعجاز القرآن" وأوجزها.وبحث السيوطي في هذه الكتب الثلاثة القضايا نفسها تقريبا وكـــان التمايز بينها بالتفصيل والإكثار من الشواهد.

وكان من ابرز الموضوعات البلاغية التي طرحها الســـيوطي فـــي كتابـــه: المجـــاز، والمشترك،والترادف، والاستعارة، والتشبيه، والكناية والتعريض، والمفهوم، والمطلق والمقيـــد، والإيجاز والإطناب والمساواة، والفصل والوصل، وبعـــض المحســـنات البديعيـــة كالمناســـبة والمجانسة والتورية واللف والنشر.

وهو من الكتب التي ألفها السيوطي في علوم القرآن وكان أسبق في التأليف من الإتقان لكنه لم يحظ بتلك الشهرة التي حظي بها الاتقان، فهو يميل إلى الاختصار والإيجاز، ولا يشـــير غالباً إلى مصادر الأنواع التي يبحثها.

ثالثاً : كتبه البلاغية الصرفة :

صنف السيوطي مجموعة غير قليلة من الكتب في علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع، ولم يصل إلينا من هذه الكتب غير أسمائها مبثوثة في كتب التراث.

ويمكن تصنيفها في ثلاثة أقسام:

أولها : كتب ألفها السيوطي ولم تصل إلينا وإنما طوتها يد الأيام وهي فـــي نظـــر الاســـتقراء المكتبي مفقودة، ومن أبرزها: "التخصيص في شواهد التلخيص" "وحاشية علـــى المختصـــر" و" وشرح أبيات تلخيص المفتاح" و"مختصر شرح أبيات تلخيص المفتاح" و"النكت على التلخيـــص" و"النكت على حاشية المطول".

ثانيها: كتب ما تزال مخطوطة:

وجد الكثير من مخطوطات السيوطي البلاغية طريقه إلى النور كالبديعية وجني الجناس وغيرها وذكر الدكتور عدنان سليمان أن من كتبه المخطوطـــة [١] رســـالة بعنـــوان "اللطـــائف المصاغة في الفصاحة والبلاغة" وهي موجودة في السليمانية باسطنبول[٢].

(١) عدنان سليمان، السيوطي النحوي، ص١٤٨.

(٢) لم أعثر على المخطوط المذكور في مكتبة السليمانية باسطنبول، حيث راسلت هذه المكتبة من طريق أساتذة أتراك أفادوا بعدم عثورهم على مخطوط بهذا الاسم رغم الكثرة الكاثرة لمخطوطات السيوطي عندهم

ثالثها : الكتب المطبوعة :

وهي : "حل العقود" : وهو شرح ألفية عقود الجمان في المعاني والبيان[١]".

"وشرح البديعية " : ويسمى الجمع والتفريق بين الأنواع البديعية ؟"

و"فتح الجليل للعبد الذليل في الأنواع البديعية المستخرجة من قولة تعالى :"الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" (البقرة /٢٥٧).

وكتاب "جنى الجناس"

وسأعرض فيما يلي من سطور للتعريف بهذه الكتب .

عقود الجمان : وهي أرجوزة نظمها السيوطي في ألف بيت في علوم البلاغة وفي ذلك يقول[٢]:

قال الفقير عابد الرحمن ... الحمد لله على البيان
وأفضل الصلاة والسلام ... على النبي أفضل الأنام
وهذه أرجوزة مثل الجمان ... ضمنتها علم المعاني والبيان
لخصتُ فيها ما حوى التلخيصُ مع ... ضم زيادات كأمثالِ اللمعِ
ما بين إصلاحٍ لما ينتقد ... وذكرِ أشياءِ لها يعتمد

وهو هنا يقرر أن أرجوزته تتضمن ما حواه كتاب " تلخيص المفتاح " للقزويني مع ضم زيادات وإصلاح انتقاد وتوضيح غوامض وضم متفرق ، وهو في الحقيقة يدور في فلك القزويني ويقع في إساره في اغلب ما بحث .

ثم رأى أن هذه الأرجوزة تحتاج إلى شرح وتحليل فوضع كتابه المسمى "وشرح عقود الجمان" وفي ذلك يقول :

"هذا تعليق لطيف علقته لينتفع به في حل أرجوزتي التي نظمتها في علم المعاني والبيان"[٣] وهو في عقود جمانه وفي حلها لا ينفك يدور في الفلك القزويني مع شيء من التلخيص حينا وإفاضة وإسهاب حينا آخر وهو يبين ذلك في مقدمة كتابه : "حاصل هذه الأبيات أن هذه الأرجوزة حاوية لما في تلخيص المفتاح مع تلخيص في العبارة: وترك كثير من الأمثلة

(١) احمد اقبال ،مكتبة الجلال السيوطي ،ص٣٣٧

(٢) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٢.

والتعليل معوضاً عنها زيادات حسنة بعضها اعتراض عليه وبعضها ليس كذلك وفيه أبحاث تلقفناها عن شيخنا محي الدين الكافيجي وهو المراد حيث أطلق فيها وربما قدمت وأخرت للمناسبة ثم من الزيادات ما هو مميز بـ"قلت" ومنه ما ليس كذلك فأميزه هنا[١].

ويعد هذا الكتاب من الكتب الشاملة لجميع المباحث البلاغية ويقع ضمن دائرة شروح التلخيص معتمداً في منهجه التبسط في الشرح وعقد الموازنة مع اهتمام بالترتيب والتقسيم سيراً على النهج المتبع في ذلك العصر.

ومنها كتابه "جنى الجناس"

وهو من الكتب التي ألفها السيوطي في أواخر حياته كما يرى محقق الكتاب "ويأتي كتاب"جني الجناس" في مرحلة متأخرة من حياته أي قبل وفاته بعام أو عامين على الأكثر"[٢] وتميز هذا الكتاب بالتخصيص حيث يتناول السيوطي فيه موضوع الجناس ويفرعه إلى أقسام صغيرة" وفي ذلك يقول :

"هذا الكتاب ألفته في أقسام الجناس التي استخرجتها وحصرتها ولم أسبق إلى ذلك وأوصلتها إلى نحو الأربعمائة قسم، وأكثرت فيها من إيراد شواهدها القرآنية والحديثية والشعرية. وغالب ما أوردته من الشواهد القرآنية والحديثية أنا الذي استخرجته ولم أسبق إلى استخراجه[٣].

ويتبين من هذا التقديم أن السيوطي قد استخدم منهج الاستقراء للتعرف على عناصر ظاهرة لغوية أدبية هي الجناس ومن خلال ذلك الاستقراء قد تعرف على أنواع الجناس وأقسامه، فقد جعل السيوطي أنواع الجناس ثلاثة عشر نوعاً وكل نوع من هذه الأنواع تحته عدة أقسام وهو يحشد بعد عرض مادته النظرية لكل نوع المئات من الشواهد والأمثلة التي تستغرق عدة صفحات لكل نوع الأمر الذي يجعل الكتاب يبدو وكأنه كتاب في الأدب .

ولا يخفي السيوطي انتفاعه بكل ما كتب في موضوعه إذ يحرص على ذكر الكتب والمؤلفات التي اقتبس منها ، لكنه مع ذلك يقف موقف الناقد فيما يأخذ أو ينقل بل يضيف كلما سنحت له الفرصة شيئا مبتكرا مما يجعل كتابه ثمرة طيبة لجهود علماء البلاغة في هذا الفن.

ومن الغريب أن البلاغيين المتأخرين لم يشيروا إلى هذا الكتاب ، ويرجع الدكتور محمد الخفاجي ذلك إلى أن السيوطي قد ألّف هذا الكتاب في نهاية حياته ولم يرد ذكره في قائمة مؤلفاته التي ذكرها في كتابه (حسن المحاضرة) (والتحدث بنعمة الله) كما يرى أن نسخ

(١) السيوطي شرح عقودالجمان، ص٣.
(٢) السيوطي، جنى الجناس، ص٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٧١.

المخطوطة لم تقع بين يد الدارسين[١]".

ومن كتبه المتخصصة أيضا كتابه "نظم البديع في مدح خير شفيع" وشرحه "الجمع والتفريق بين الأنواع البديعية": هي قصيدة طويلة تقع في مائة وثلاثة وثلاثين بيتا ومطلعها[٢] :

من العقيقِ ومن تذكارِ ذي سلمِ   براعة العين في استهلالها بدمِ

وقد عارض بها بديعية الشاعر ابن حجة الحموي في التورية باسم النوع البديعي يقول في ذلك: "هذه بديعية مدحت بها من وجب على الخلق امتداحه وتحلى بقلائد أوصافه الكرام مداحه، معارضا بها بديعية الشاعر الماهر تقي الدين أبي بكر بن حجة في التورية بالنوع البديعي[٣]" وقد ضمت مائة وستة وثلاثين محسنا بديعياً وذكر السيوطي زيادة عشرة محسنات في بديعية وهي المحرف والمشوش والمرفو والاحتباك والالتفات والمجنح والترشيح والاقتضاب وجناس الازدواج والطرد ، ومعنى الزيادة عنده أنه زادها على أصحاب البديعيات إذ لم يذكروها في بديعياتهم ولكن وردت في كتب البلاغة الأخرى .

أما شرحه للأنواع البديعية فهو شرح مبسط موجز لايتعدى السطر أو السطرين أحيانا، وهذا نهجه في معظم الكتاب لكنه يميل إلى الإسهاب عند تناوله لبعض أنواع البديع وذلك في مثل حديثه عن جناس المعنى[٤].

ولم تنل بديعيته الشهرة التي نالتها البديعيات الأخرى.

أما آخر كتبه المتخصصة فهو رسالة "فتح الجليل للعبد الذليل".

تعد هذه الرسالة من البلاغة التطبيقية فهو من خلالها يستنطق النص القرآني ليستخرج منه ما يحتمله من أنواع ومصطلحات بلاغية ، فقد ألف السيوطي هذه الرسالة في الأنواع البديعية المستخرجة من قوله تعالى : "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" (سورة البقرة/ ٢٥٧).

وفي ذلك يقول في مقدمة رسالته : " فقد وقع الكلام في قوله تعالى : " الله ولي الذين آمنوا.... وقررت فيها بضعة عشر نوعا من الأنواع البديعة ثم وقع التأمل بعد ذلك ففتح الله

(١) السيوطي، جنى الجناس ص ٣٠ .

(٢) السيوطي ، نظم البديع ،ص٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ،ص٤٥ .

(٤) السيوطي،المصدر نفسه ،ص ١١٢

بزيادة حتى جاوزت الأربعين ثم قدمت الفكر فلم تزل تستخرج وتنمو إلى أن وصلت بحمد الله مائة وعشرين نوعا ، وقد أردت تدوينها في هذه الكراسة ليستفيد من له غرض في الوقوف على أسرار التنزيل[١]".

وقد عرض السيوطي فيها لأكثر من ستين نوعاً من أنواع البديع منها اللفظ والمعنى والابداع والاتساع والاحتباس والاحتراس وارسال المثل واستئناف بياني والإطناب وغيرها ولكنه تناول أيضا بعض المصطلحات البيانية من مثل الاستعارة وأنواعها ومصطلحات علم المعاني من مثل الإتيان بالجملة الاسمية للدلالة على الثبوت والاستقرار وتقديم المسند إليه.

و خرج من إطار البلاغة العربية ليستخرج ما فيها من أحكام من علم أصول الدين ومن علم أصول الفقه ومن علم النحو ومن علم السلوك .

ولا يكتفي السيوطي بإيراد مواقع الفن البلاغي بل يتعدى ذلك إلى تقديم تعريف موجز مبسط لهذا الفن وإيراد بعض الأمثلة أحيانا التي تعزز فهم هذا الفن مما يجعل من الكتاب تقدمة منهجية لبعض الأنواع البلاغية .

ويؤكد السيوطي في ختام رسالته أنه غير مسبوق بما فعله فهو يقول " فهذا ما ظهر لي في الآية من أنواع البلاغة وكلها مما استخرجته بفكري وبالتنزيل على قواعد علوم البلاغة ولم أر أحدا تعرض لشيء من ذلك في الآية إلا الموضع الذي نقلته عن أبي حيان في الترديد والذي نقلته عن الزمخشري في الطاغوت وإلا الطباق فإن أبا حيان أيضا ذكره [٢]".

ويتبدى لنا مدى الدقة التي يتميز بها السيوطي في نسبة الأقوال إلى أصحابها دون تردد أو وجل ،هذه الصفة التي انسحبت على جميع كتبه التي ألفها .

(١) السيوطي ،فتح الجليل ،ص١٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص٣٩-٤٠ .

الفصل الأول

المصادر البلاغية للسيوطي

شكَّل البحث البلاغي عند السيوطي مرتعا خصبا صبَّ فيه معرفته البلاغية التي نهلها من مصادر شتى، فتعددت مصادره وتتالت نقولاته؛ مما دفع بعض الباحثين إلى اتهام جهد السيوطي التأليفي بأنه مجرد نقول ومقتطفات ليس فيها من الإبداع شيء، ولعل في هذا القول شيئاً من التحامل بقدر ما فيه من الصحة، فالسيوطي لا ينكر أنه ينقل من مصادر كثيرة بل هو يحرص على ذكر مصادره في مقدمات كتبه وكذلك يثبت النقول لأصحابها قبل ابتداء نقولاته ويقول في ذلك: "وقد علم الله والناس من عاداتي في التأليف أني لا أنقل حرفا من كتاب أحد إلا مقروناً إلى قائله ونسبته إلى ناقله "وهو بذلك يضع القارئ أمام تصور واضح للمادة التي يقرؤها، كما أنه يصدق عليه وصف "الباحث المعاصر" فهو أقرب إلى منهجيته وطرق بحثه حيث يختار المشكلة التي تحتاج إلى بحث ويدرس كل ما كتب عنها ويبرز نواحي النقص ويعد بإكمال ما فات ويضع خطة عمل بناء على ذلك، وعلى هذا فالقول بخلو جهد السيوطي من الإبداع قول جائر فنحن لا نطلب من السيوطي أكثر مما ينبغي لموسوعي حفظ لنا التراث البلاغي وكان في انتقائه للمادة البلاغية وترتيبها راصدا آخر ما تواضع عليه البلاغيون[١].

ولا يخفى أن البحث البلاغي كباقي البحوث الإنسانية تتقلص فيها مجالات الإبداع كلما تقادم عليها الزمن، وتتمايز فيها جهود المؤلفين بطرق عرضهم وتناولهم للمادة المطروحة وطرائق تحليلها واستنطاقهم للشواهد، وهم في ذلك كله يدورون حول مصادر أساسية، ويلجأون إلى ما كتب القدماء ليبنوا عليها جديدهم.

من هنا كان لابد لنا أن أمر قليلا عند أهم المصادر التي شكلت أساساً هاماً لدى السيوطي في كتبه البلاغية الصرفة أو تلك التي كان للبلاغة فيها نصيب، آخذاً بعين الاعتبار كثرة هذه المصادر وتعددها، وهو ما يجعلني أتعرض لبعض تلك المصادر التي تكررت كثيرا في كتبه متوقفاً عند أبرز نقاط الاتفاق دون إغراق في التفاصيل وسأعرضها حسب التسلسل الزمني لمؤلفيها.

(١) مصطفى الجويني، البلاغة العربية، ص٧٩.

مفتاح العلوم: "سراج الدين بن أبى بكر أبو يعقوب السكاكي" (٦٢٦ هـ)

شكل السكاكي مفصلاً هاماً في جسد البلاغة العربية، ورسم نهجاً اختطه الكثيرون ممن جاءوا بعده، إذ استوت بين يديه مفردات هذا العلم فشكلها وأعاد تقسيمها وفق منطقه الذي تميز بالجنوح نحو الغلو في التحديد والتقسيم والتفريع.

وجاء القسم الثالث من كتاب المفتاح متضمنا الحديث عن علوم البلاغة: المعاني والبيان وقد قسمه إلى مقدمة عرّف فيها بالعلمين وإلى فصلين تكلم في الفصل الأول على المعاني وموضوعاته وفي الثاني على البيان ومباحثه. وألحق هذين الفصلين ببحث موجز عن المحسنات المعنوية واللفظية[١].

ولم يقتصر عمل السكاكي على ما ورد في كتب من سبقه من علماء بحثوا البلاغة في جانب من جوانبها، بل استدرك عليهم وتمم ما بدأوه فميز الأنواع الملتبسة، وقرر القواعد التي جعلت من البلاغة علما ثابت الأصول، بعد أن رتب المسائل وبوبها تبويبا جعلها أقرب إلى الدقة والإحكام، والملاحظ أنه أحاط بحوثها بالجدل والفروض الخيالية واستند إلى العقل في استنباط القواعد[٢].

وجاء بحث السكاكي لمباحث البلاغة في مفتاحه على قدر عال من التجريد والتحديد، الأمر الذي أضفى على بحثه شيئا من الغموض أو التعقيد أحيانا مما دفع بالكثيرين من بعده إلى تناول متن المفتاح شرحاً وتوضيحا واختصاراً وتنقيحا، ولعل ذلك الغموض مجلوب بتحكيم الفلسفة والمنطق في البحث البلاغي بناء وتحليلا وتعليلا.

ومع ذلك فقد يكون هذا التحديد والتناول من الأسباب التي جعلت البلاغة علما ثابت الأركان واضح المعالم، ولكن يؤخذ على السكاكي التمحل والإسراف في جعل البلاغة ميدانا لتطبيق المنطق ومناهج بحث الفلاسفة[٣].

وحظي كتاب السكاكي بمنزلة عالية بين المتأخرين وأصبح محورا يدور حوله التآليف من

(١) أحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي، ص٦٨.

(٢) السكاكي، مفتاح العلوم، ص ج.

(٣) احمد مطلوب، مناهج بلاغية، ص٢٥٦.

شروحات وملخصات، بل إن صورة البلاغة التي رسمها في كتابه كانت الأساس لكل ما كتب بعده[١].

ولم يكن السيوطي شاذا عن هذا النهج، إذ كان للسكاكي فضل عظيم عليه خاصة في كتابيه "**شرح عقود الجمان**" و"**إتمام الدراية**" فقد أورد ذكره في كثير من المواضع، وأحال إلى ما قاله مرات عديدة، كما أننا نجد آراء السكاكي مبثوثة في كتب السيوطي الأخرى كالإتقان ومعترك الأقران، والفتح الجليل، هذا يؤكد الحضور السكاكي في مؤلفات السيوطي. ولعلي فيما يلي من سطور أتوقف عند بعض المواطن التي اعتمد فيها السيوطي على آراء السكاكي أو مال عنها إلى غيرها.

أورد السيوطي أن السكاكي أنكر المجاز العقلي ذاهبا إلى أنه استعارة بالكناية بجعل الربيع مثلا في المثال (أنبت الربيع البقل) استعارة عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه وجعل نسبة الإنبات إليه الذي هو من لوازم الفاعل الحقيقي قرينة للاستعارة[٢]، لكنه فضل عليه رأي القزويني وأشار إلى أن ردود القزويني في هذه المسألة هي الأنسب[٣].

وفي حديثه عن نكت تعريف الاسم بالإضافة أشار إلى رأي السكاكي[٤] بزيادة نكتة الإشارة إلى مجاز لطيف مستشهداً بالبيت الذي أورده وهو :

إِذَا كَوْكَبُ الخَرْقَاءِ لَاحَ بِسَحْرَةٍ سُهَيْلٌ أَذَاعَتْ غَزْلَهَا فِي القَرائِبِ

وكذلك أضاف منه نكتة الترقق كقولك (محبك على الباب).

ويتوقف السيوطي عند مناقشة السكاكي للشيخ عبد القاهر الجرجاني في مسألة تقديم المسند إليه لإفادة التخصيص فهو يورد شروط السكاكي وتفاصيله على هذه المسألة[٥].

وفي الحديث عن تأخير المسند إليه يورد السيوطي أن السكاكي يرى أن نقل الكلام

(١) أحمد مطلوب، مناهج بلاغية، ص٢٦٠

(٢) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤

(٤) السكاكي، مفتاح العلوم ص١٨٧،والبيت بلا نسبة في لسان العرب مادة (غرب) ويروى "الغرائب" بدل "القرائب".

(٥)السيوطي المصدر السابق ص٢٤.

عن الحكاية إلى الغيبة ليس مختصا بالمسند إليه،بل كل من الغيبة والخطاب والتكلم ينقل إلى آخر في المسند إليه وغيره ويسمى التفاتاً[١] ويعلق على ذلك بأن الالتفات التعبير عن معنى بواحد من الثلاثة بعد التعبير عنه بغيره، ويضيف أن هذا أخص من قول السكاكي ويعلل ذلك لأن قول الخليفة أمير المؤمنين يأمرك بكذا التفات على رأيه لأنه منقول عن "أنا" لا على الثاني لعدم تقدم خلافه[٢].

وتتالت إطلالات الآراء السكاكية في تضاعيف مختلف كتبه بين إشارة موجزة ورأي مفصل، وحسبنا ما أشرنا إليه من مواطن باعتبارهاأمثلة دالة على ما قلنا.

تلخيص المفتاح "جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني" (٧٣٩ هـ):

نال كتاب "التلخيص" من الشهرة ما جعله المرجع الأساس لطالبي البلاغة العربية قديما وحديثا فكثر شراحه ودارسوه، وقد ذكر القزويني في فاتحة تلخيصه دوافعه وراء تأليفه الكتاب فقال: "وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي أعظم ما صنف (في علم البلاغة) من الكتب المشهورة نفعا، لكونه أحسنها ترتيبا وأتمها تحريرا وأكثرها للأصول جمعاً، ولما كان غير مصون من الحشو والتطويل والتعقيد قابلا للاختصار مفتقرا إلى الإيضاح والتجريد، ألفت مختصرا يتضمن ما فيه من القواعد، ويشمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد ولم آل جهدا في تحقيقه وتهذيبه، ورتبته ترتيبا أقرب تناولا من ترتيبه ولم أبالغ في اختصار لفظه، تقريبا لتعاطيه وطلبا لتسهيل فهمه على طالبيه وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت عليها في بعض كتب القوم وزوائد لم أظفر في كلام أحد بالتصريح بها"[٣].

ومنهج القزويني في التلخيص لا يخرج كثيرا عن منهج السكاكي في مفتاحه فقد درس فنون البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع، لكنه لم يتقيد حرفياً بكل ما جاء في المفتاح، وإنما قدم وأخر ورتب وهذّب وأضاف موضوعات جديدة إذ ابتدأ كتابه بحديث عن الفصاحة وختمه بحديث عن السرقات الشعرية وحسن الابتداء والتخلص والانتهاء.

وكان السيوطي من بين أولئك الذين جذبهم التلخيص وأثار اهتمامهم فحرص على

(١) السكاكي، مفتاح العلوم ص١٠٦.

(٢) السيوطي، شرح عقود الجمان،ص٢٨

(٣) القزويني، تلخيص المفتاح ص٨.

اقتناء نسخة بخط مؤلفه تعظيماً لشأنه.

ودفعه شغفه به إلى نظمه في أرجوزته الشهيرة "**عقود الجمان**" التي يقـــول فـــي مطلعها[١]:

وَهَـذه أُرْجُوزَةٌ مِثْـــلُ الجُمَـــانِ	ضمنتُها علم المعاني والبيانِ
لَخَّصْتُ فيها ما حوى التَّلْخِيصُ مع	ضم زيادات كأمْثَالِ اللُّمَــعِ
ما بيــنَ إصــلاحٍ لِمَـــا ينتَقـــدُ	وذكْرِ أشيــاءَ لهـا يعتمـد
وضــــم مـــا فرقَـــهُ للشبَـــهِ	والله ربي أســألُ النفعَ بـــهِ

ويقرر السيوطي في أرجوزته أنه يعظم كتاب التلخيص فهو أســاس بحثـــه مـع تلخيص في العبارة وترك كثير من الأمثلة والتعليل معوضا عنها زيادات حسنة بعضهـــا اعتراض عليه وبعضها ليس كذلك[٢].

من هنا نجد أن كتاب "التلخيص" يشكل المصدر الرئيس الذي بنى عليه السيوطي كتابه "عقود الجمان"؛ فاختط نهجه وسار على دربه وسأعرض تفصيلاً وتحليـــلاً لكتـــاب "عقود الجمان" في الفصل الثاني من الرسالة وهذا ما يدفعني إلى الاستغناء عن الموازنـــة بينهما لبيان مواضع الأخذ ومواطن الخلاف، وأقرر بدءا أن السيوطي في كتابـــه يخـدم كتاب التلخيص بتتبع شوارده وإيضاح مشكله وتوسيع أفقه، وهو في ذلـــك ينطلـق مـن عبارته ويرتد إليها مع محاولة إبراز السمة السيوطية وتعزيزها .

وقد أفاد السيوطي من القزويني في تضاعيف كتبه الأخرى كالإتقـــان والمعـــترك ومن قبلهما إتمام الدراية"، ومن الأمثلة على هذه الإفادة في كتاب "**الإتقـــان**": مـــا ذكـــره السيوطي في بحث المجاز من رأي للقزويني: بأنه متى تغير إعراب الكلمـــة بحـــذف أو زيادة فهي مجاز نحو "واسْألِ القَريةَ" (يوسف/٨٢) وقوله تعالى: "ليـــس كَمِثْلِـــه شـــيءٌ" (الشورى /١١)، فإن كان الحذف أو الزيادة لا يوجب تغيير الإعراب نحو "أو كَصَيِّـــبٍ" (البقرة/١٩)و(بما رحمة) (آل عمران) /١٩٥) فلا توصف بالمجاز[٣].

واختار السيوطي جعل "الفعل" من أدوات التشبيه اتباعاً للقزوينـــي الـــذي قـــال : وربما يذكر فعل ينبئ عن التشبيه القريب، فيؤتى في التشبيه القريب بنحو "علمت زيـــدا

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان،ص٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٣.

(٣) السيوطي الاتقان ج٢/٩٨، القزويني الايضاح، ص٣٩٣.

أسدا" الدال على التحقيق، في البعيد بنحو "حسبت زيداً أسداً"، الدّال علـــى الظـــن وعـــدم التحقيق(١).

وهكذا يعود السيوطي إلى آراء القزويني ومناقشاته في غير موضع من مواضـــع كتابه "الإتقان".

أما "**إتمام الدراية لقراء النقاية**" وشرحه فهو تكثيف مختصـــر لمـــادة "**المفتـــاح**" و"**التلخيص**" ؛وليس للسيوطي من دور فيه سوى إعادة الصياغة بعبارة ســـهلة مبسـطة واختصار الإطناب، وتهذيب الشوارد.

وبناء عليه نجد أن للقزويني فضل عظيم على السيوطي وهو لا ينكر هذا الفضل وينسبه لصاحبه - كما أنه في قراءاته لمادة القزويني وبحثه لها حاول أن يضيف واجتهد أن يفيد.

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح "بهاء الدين **أحمد بـــن تقـــي الديـــن السبكي**"(٧٧٣ هـــ) :

جاء هذا الكتاب ضمن منظومة الكتب التي تناولت تلخيص القزوينـــي، والســـبكي يعلل سبب تأليفه الكتاب بأنه نظر في أكثر شروح المفتاح فوجدها مختلّة مضطربة ليـــس فيها إلا المكرر والمعاد وقال: "فهداني ذلك على أن أشد جياد الحزم وأمد ركاب العزم إلى شرح للتلخيص يحيي هذا العلم الرفات ويدرك منه ما فات(٢). وأشار السبكي إلـــى أنـــه استعان لتأليف كتابه بما يقارب الثلاثمائة كتاب تنوعت فيها المعارف والاتجاهات فمنها ما هو ذوقي ومنها ما يجنح إلى الأخذ بأصول المنطق وعلم الكلام، ومن هنا جمع الســـبكي بين هذين التيارين فمزج بين المدرستين الفلسفية والأدبية(٣).

ولا يخرج منهجه عما اختطه القزويني في التلخيص لكنه يزيد بما ناقشه من آراء

(١) القزويني، التلخيص ص١٢٧.

(٢) السبكي، عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) ج١ /٤، وينظر: محمد بركات أبو علي، الصورة الفنية عند البهاء السبكي ص٥٩، عبد الفتاح لاشـــين، البهـــاء السبكي وآراؤه البلاغية ص٣٤.

(٣) احمد مطلوب، مفاهيم بلاغية ص٢٩٣.

وما أضافه من زيادات، ولم يسلّم بكل ما جاء به القزويني بل رد ورجح في مواطن كثيرة.

واختط السبكي طريقة في شرح التلخيص تختلف عن غيره إذ يأخذ جملة أو أول فقرة أو عبارة ثم يتكلم عن ذلك الموضوع بجملته[١].

ولقي "عروس" السبكي قبولا حسنا عند السيوطي فأحال إليه في كثير من مواضيع بحثه، وامتد أثره ليشمل معظم كتبه في البلاغة "كالعقود" و"الإتقان" و"المعترك" وهو بهذا يؤكد مكانته العلمية لديه.

ولعلني أستجلي هذا الظهور من خلال إيراد بعض المواطن باعتبارهاأمثلة دالة على الحضور السبكي في مؤلفات السيوطي.

من ذلك أنه اختار رفضه لأن يكون قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: "هي عصاي، أتوكأُ عليها" (طه/٧) مثالا لنكتة بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب وذلك في ذكر المسند إليه إذ يرى هنا أن المطلوب هو الكلام المستدعى من موسى لا لإصغاء وإنما أخذ ذلك الإصغاء من جانبه تعالى فلذلك لا يسمى إصغاء ولو سمي فإنما المقصود كلام الله تعالى وأن يصغي هو له وذلك لا يحصل ببسط الجواب إلا أن يقال قصد تطويل المكالمة والمراجعة، وهذا الرأي جعل السيوطي يربط بين بسط الكلام وطول المقام استعذاباً ولا يربطه بالإصغاء[٢].

وفي نفس السياق أخذ السيوطي منه نكتة الاستغراق عند تعريف المسند إليه بالإضافة وأثبت تعجبه من أهل البلاغة الذين لم يذكروا إرادة الاستغراق من الإضافة وهي من أدوات العموم كما أن أداة التعريف كذلك بل عموم الإضافة أبلغ[٣]. وجعل مطلق الاستعارة أبلغ من الكناية متابعاً السبكي في ذلك باعتبار أنها جامعة للفنيين[٤].

(١) احمد مطلوب، المصدر نفسه ص٢٩٧، وينظر كتاب عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص

(٢) السيوطي، عقود الجمان ص ١٥، السبكي عروس الأفراح، ج١/٢٨٥.

(٣) السيوطي، المصدر نفسه ص ١٩، السبكي، المصدر نفسه ج١/٣٤٦.

(٤) السيوطي، المصدر نفسه، ص ١٠٤، السبكي، المصدر نفسه، ج١/ ٢٨٢

واستمر السيوطي في "عقود الجمان" بنثر آراء السبكي والإشارة إلى تلميحاته حتى لا تكاد تجد مبحثا عاماً إلا ولرأي السبكي فيه موضع وللمحاته فيه إطلالة، ولعل في تتبعها إطالة لا يحتملها المقام، وسأكتفي بما أشرت إليه من أمثلة لأورد بعض تأثيرات السبكي في كتب السيوطي الأخرى ومن أهمها "الإتقان".

ففي مبحث الحصر والاختصاص ذكر السيوطي رأي السبكي في رده اعتبار العطف بـ "لا" أو "بل" من طرق الحصر حيث قال: "أيّ قصر في العطف بـ "لا" إنما نفي وإثبات، فقول: زيد شاعر لا كاتب، لا تعرض فيه لنفي صفة ثالثة، والقصر إنما يكون بنفي جميع الصفات غير المثبت حقيقة أو مجازاً، وليس هو خاصاً بنفي الصفة التي يعتقدها المخاطب، وأما العطف بـ"بل" فأبعد منه لأنه لا يستمر فيها النفي والإثبات[1].

وفي المبحث نفسه وافق السبكي في جعل "ضمير الفصل "من طرق الحصر مورداً دليله من قوله تعالى "فلمّا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم" (المائدة /١١٧).

لأنه لو لم يكن للحصر لما حسن، لأن الله لم يزل رقيباً عليهم وإنما الذي حصل بتوفيه أنه لم يبق لهم رقيب غير الله تعالى[2].

وفي بحث "الإيجاز" اثبت السيوطي حد السبكي لنوعي الإيجاز وهما إيجاز القصر وإيجاز الحذف فقد قال السبكي: الكلام القليل إن كان بعضا من كلام أطول منه فهو إيجاز حذف، وإن كان كلاما يعطي معنى أطول منه فهو إيجاز قصر[3].

ويظهر السبكي في كتاب "الإتقان" كما ظهر في "العقود" مؤكداً كونه أحد المنابع المهمة التي شكلت معين السيوطي البلاغي ولعلي فيما أوردته من أمثلة أكون قد دللت على هذا الحضور وستكون لي عودة لذكره عند بحثي لبلاغة السيوطي إن شاء الله .

(١) السيوطي، الاتقان ج٢ /١٢٨، السبكي، المصدر نفسه ج٢ / ١٨٧.

(٢) السيوطي المصدر السابق، ج٢/١٢٨.

(٣) السيوطي المصدر السابقج٢/١٣٨، السبكي، المصدر السابق ج١ /١٨٣.

"المطول" و"المختصر" لسعد الدين التفتازاني (٧٩٢هـ) :

كان التفتازاني من أبرز الذين تناولوا شرح التلخيص للقزويني بالدرس والمراجعة وكتب شرحا له وتعقيبا عليه كتابه "المطول" قاصدا من تأليفه تفصيل مختصره وشرح غوامضه وشجعه على ذلك رغبة الدارسين الذين لم يستطيعوا الإلمام بكل ما جاء في التلخيص[١].

ولم يقتصر التفتازاني في شرحه على ما ورد في "التلخيص"، بل أضاف إليه ما وجده مفيداً وضرورياً مما عثر عليه في كتب القدماء وما توصل إليه نتيجة مراجعته الفضلاء المتخصصين في هذا الميدان، ولم يكتف بذلك بل أضاف إليه ما اهتدى إليه بثاقب فكره من غرائب ونكت واجتهادات وتفسيرات واستنباطات يسرت على دارسي هذا الكتاب فهم كثير من المسائل البلاغية[٢].

وأما تأليفه "للمختصر" فكان تلبية لحاجة ملحة وهي رغبة الجمع الكثير من الفضلاء الذين كانوا يسألونه صرف الهمة نحو اختصار "المطول" والاقتصار على بيان معانيه وكشف أسراره[٣].

ولم يخرج الشرحان على ما اختطه السكاكي ورسمه القزويني، وقد اتبع السعد فيهما نهج الشراح الآخرين وذلك بأن يأخذ العبارة أو الكلمة ويشرحها وقد يخرج عن الشرح فيرد رأياً ويقبل غيره[٤].

ويبقى المنطق الفلسفي هو الذي يحكم عبارته ويؤطر بحثه، إذ لا يزال أسير النزعة العقلية والنظرة المنطقية كما هو ديدن عصره، رغم محاولته تضمين كتابه إضافات كثيرة من كتب سابقة عنيت بالوجه الأدبي للبلاغة لكن قالبه العام يبقى فلسفياً. ولاقت بعض آراء السعد قبولا لدى السيوطي فأشار إليها وأثبتها في كتابه "عقود الجمان" فهو قد سار على النهج الذي سار عليه السعد في بحث علوم البلاغة .

ولعل من أبرز نقاط الالتقاء بينهما إخراجه الاستعارة من التشبيه، وإدخال التشبيه الذي حذفت منه الأداة أو ما في حكمه [٥]. كقوله تعالى "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ" (البقرة/ ١٨).

(١) التفتازاني، المطول،ص٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٤

(٣) التفتازاني، مختصر المعاني ضمن شروح التلخيص،ج١، ص٣٠.

(٤) احمد مطلوب، مناهج بلاغية،ص٣٠٠

(٥) السيوطي، عقود الجمان ص٧٨ التفتازاني، المطول ص٣١٠.

ووافق السيوطي التفتازاني في اعتراضه على قول القزويني: إن أغراض التشبيه الأربعة تقتضي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتم، وأن يكون المشبه به بوجه الشبه أشهر وأعرف، إذ يرى التفتازاني أن بيان الإمكان والحال لا يقتضيان الأشهرية، وكذا بيان المقدار لا يقتضي الأتمية بل ينبغي أن يكون المشبه به على حد مقدار المشبه لا أزيد ولا أنقص[١].

وبين السيوطي أن في قوله تعالى "ولا يحيق المكر السيء الا بأهله" (الأنعام/ ٦٨) مساواة وليس كما قيل إن فيه إيجازا مستدلاً بما أورده التفتازاني بأن هذا الحذف رعاية لأمر لا يفتقر إليه تأدية أصل المراد حتى لو صرح به لكان إطناباً، بل تطويلا [٢].

وفضل السيوطي تمثيل التفتازاني بقولنا لمنكر الإسلام الإسلام حق، بلا تأكيد، على تمثيل القزويني[٣].

وتبنى السيوطي تعريف السعد للحقيقة وللاستعارة وتعليله لامتناع مجيء الاستعارة علماً. وكذا تقسيمه للاستعارة باعتبار الجامع إلى قسمين :

الأول : ما يدخل في مفهوم الطرفين. **والثاني**: وهو غير داخل في مفهوم الطرفين [٤].

كما أن السيوطي نقل ما ذكر التفتازاني حول الحذف الوارد في قوله تعالى: "فصبر جميل " (يوسف/١٨) [٥].

وهكذا نرى أن السيوطي لم يعدم الإفادة من معين سعد الدين التفتازاني ولم يبخسه حقه فأشار إليه في المواطن التي أخذ فيها عنه .

(١) التفتازاني،المطول، ص٣٣٢.

(٢) السيوطي، شرح عقود الجمان ص٦٨، التفتازاني، المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٣) التفتاواني، المصدر السابقص٥٠.

(٤) السيوطي،المصدر السابقص٩٤، التفتازاني، المصدر السابقص٢٦٣.

(٥) التفتازاني، المصدر السابق،ص٦٤٢.

البرهان في علوم القرآن "لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ) :

يعد الإمام الزركشي من السباقين في مجال التأليف في العلوم القرآنية وكان كتابه "البرهان" قبساً اهتدى بنوره كل من سلك هذا الدرب في التأليف.

وقد تناول الزركشي في كتابه هذا ما يتعلق بالعلوم القرآنية من مباحث وفي ذلك يقول: "ولما كانت علوم القرآن لا تنحصر ومعانيه لا تستقصى وجبت العناية بالقدر الممكن ومما فات المتقدمين وضع كتاب يشتمل على أنواع علومه، كما وضع الناس ذلك بالنسبة إلى علم الحديث، فاستخرت الله تعالى في وضع كتاب في ذلك جامع لما تكلم الناس في فنونه وخاضوا في نكته وعيوبه وضمنته من المعاني الأنيقة والحكم الرشيقة ما يهز القلوب طرباً ويبهر العقول عجباً، ليكون مفتاحاً لأبوابه عنواناً على كتابه، معيناً للمفسر على حقائقه، ومطلعاً على بعض أسراره والله المخلّص والمعين"[1].

وقد ضمن كتابه سبعة وأربعين نوعاً ابتدأها بمعرفة أسباب النزول وختمها بمعرفة الأدوات. وعقّب على ذلك أن أي نوع من هذه الأنواع يحتاج إلى سنين لاستقصائه لكنه سيقتصر من كل نوع على أصوله والرمز إلى بعض فصوله[2].

وحاول السيوطي أن يسير في هذه الطريق وكان قد كتب كتابه المختصر "التحبير في علم التفسير" وأراد أن يؤلف كتابا مبسوطا مجموعا مضبوطاً، ظانا أنه متفرد في هذه الطريق حتى علم بوجود كتاب "البرهان" فطلبه حتى وقف عليه وقد أثبت السيوطي هذا الكلام في مقدمة كتابة "الإتقان"[3] فلما وقف عليه سر به وازداد عزمه على التأليف، فوضع "الإتقان" وأشار إلى الاختلافات الرئيسة بينهما، فقال:" فوضعت هذا الكتاب العلي الشأن الكثير الفوائد والإتقان، ورتبت أنواعه ترتيبا أنسب من ترتيب البرهان، وأدمجت بعض الأنواع في بعض، وفصلت ما حقه أن يبان، وزدته على ما فيه من الفوائد والفرائد"[4].

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ص،١٠٣٠/٣٠.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٣٦

(٣) السيوطي، الإتقان١/ ١٠٣.

(٤) المصدر نفسه ١/ ١٦.

ونجد السيوطي يقرر مقدماً أنه بنى على ما جاء في "البرهان" وأن ما انماز به ينحصر في التبويب والدمج وزيادة بعض الأنواع، وكأنه يسوغ ما سيجده القارئ في كتابه من تشابه مع ما كتب الزركشي، فالذي يبني على شيء يحافظ على مواد ما بنى عليه.

وقد رتب السيوطي "الإتقان" في ثمانين باباً كان أولها "معرفة المكي والمدني" وختمها بالحديث عن "طبقات المفسرين" وعقب على ذلك بقوله " فهذه ثمانون نوعا على سبيل الإدماج ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمئة(١)".

ويجد القارئ للكتابين أنهما يلتقيان في كثير من الصفات المشتركة من مثل منهجية التأليف التي تتميز بطرح المادة كما وردت في عبارات الآخرين مع إضافات في الصياغة والاستنتاج، ثم جمع الشواهد والوقوف عند بعضها بالتحليل والإبانة، ويكون الاختلاف أحيانا بتعديل في النقولات.

كما يشتركان في كثير من الأحيان باستخدام العبارات نفسها وترتيب موضوعات البحث ترتيبا متشابها.

ولعلي أستجلي هذه التشابهات بتناول مثل أتوقف عند حدوده، وأعرض له كما ورد في "البرهان" و"الإتقان" وليكن موضوع "الكنايات": فالزركشي يمهد لموضوعه بمقدمة قرر فيها أن العرب تعد الكناية من البراعة والبلاغة وهي عندهم أبلغ من التصريح(٢) وأكد هذا القول بإيراده لقول الطرطوسي الذي رأى أن أكثر أمثلتهم الفصيحة على مجاري الكنايات ومثل لذلك بحديث "كان إذا دخل العشر أيقظ أهله وشد المئزر(٣)".

وبعد ذلك عرّف الكناية بأنها الدلالة على الشيء من غير تصريح باسمه، وحدها عند أهل البيان أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورديفه في الوجود فيومئ إليه ويجعله دليلا عليه فيدل على المراد من طريق أولى، مثاله قولهم "طويل النجاد" كثير الرماد" كناية عن الطول والكرم(٤).

(١) السيوطي، الإتقان،١/٢٠.

(٢) الزركشي، البرهان ٢/٣١٣

(٣) المصدر نفسه،٢/٣١٣.

(٤) المصدر نفسه، ٢/٣١٢.

وذكر أنهم اختلفوا في كونها حقيقة أم مجازا، وأشار إلى قول الطرطوسي في "العمدة" بأنهم اختلفوا في وجود الكناية في القرآن، فهو كالخلاف في المجاز.

وختم مقدمته بقول الشيخ عز الدين يرى فيه أن الكناية ليست بمجاز لأنك استعملت اللفظ فيما وضع له وأردت به الدلالة على غيره ولم تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له[١].

فإذا جئنا للسيوطي وجدنا أنه قدم لموضوعه بفقرة ذكر فيها: أنهما (الكناية والتعريض) من أنواع البلاغة وأساليب الفصاحة، وأن الكناية أبلغ من التصريح وعرفها أهل البيان بأنها: لفظ أريد به لازم معناه، وأشار إلى تعريف الطيبي لها: بأنها ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم، فينتقل منه إلى الملزوم، وأشار إلى أنه أنكر وقوعها في القرآن من أنكر المجاز فيه، واختار كونها حقيقة لا مجازاً[٢].

ثم شرع الزركشي بعد مقدمته بتناول أسباب الكناية وغايتها وذكر منها عشرة أسباب وهي بإيجاز: التنبيه على عظم القدرة وفطنة المخاطب، وترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه وأن يفحش ذكره في السمع وتحسين اللفظ وقصد المبالغة في التشنيع والتنبيه على المصير وقصد الاختصار، أن يعمد إلى جملة ورد معناها على خلاف الظاهر فيأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة أو المجاز فتعبر بها عن مقصودك وهي من مستخرجات الزمخشري[٣].

ومثل الزركشري لما سبق بشواهد من القرآن الكريم. وتباينت هذه الشواهد من حيث عددها والتوقف عندها بالتحليل فقد يذكر للسبب شاهداً واحداً أو شاهدين دون تحليل أو توجيه، وقد تكثر شواهده وتتعدد كما حصل في مناقشته للسبب الرابع من أسباب الكناية وهو " أن يفحش ذكره في السمع " حيث ذكر له عشرة شواهد توقف عند بعضها بالتحليل كما في قوله تعالى " ولكن لا تواعدوهن سرا " (البقرة / ٢٣٥) وقوله تعالى "كانا يأكلان الطعام " (المائدة/٧٥) بل إنه عزز شواهد هذا السبب بأحاديث نبوية شريفة[٤].

(١) الزركشي، البرهان، ٢/٣١٤.

(٢) السيوطي، الإتقان، ج٢/١١٨.

(٣) الزركشي، المصدر السابق، ٢/٣١٤-٣٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ٢/٣١٤-٣٢٢.

أما السيوطي فقد ذكر من أسبابها ستة أسباب هي التنبيه على عظم القدرة وترك اللفظ إلى ما هو أجمل وأن يكون التصريح مما يستقبح ذكره وقصد البلاغة والمبالغة وقصد الاختصار والتنبيه على مصيره، وأشار إلى الكناية التي استنبطها الزمخشري[١].

وأشار إلى قول بدر الدين بن مالك: إنما يعدل عن التصريح إلى الكناية لنكتة كالإيضاح أو بيان حال الموصوف أو مقدار حاله أو القصد إلى المدح أو الذم وغيرها[٢].

ومثل لما ذكر بشواهد قرآنية لم تتعد الشاهد والشاهدين للسبب الواحد باستثناء السبب الثالث فكانت أحد عشر شاهداً وهو لا يتوقف كثيرا عند شواهده .

وختم الزركشي حديثه عن الكناية بتنبيهين:

الأول: ناقش فيه مسألة اشتراط القرينة في الكناية كالمجاز، وذكر أن الخلاف في ذلك مبني على اعتبار الكناية مجازا أم لا. وأورد رأي الجرجاني باشتراط القرينة[٣].

والثاني: علق فيه على مقولة عادة العرب في أنها لا تكني عن الشيء، بغيره إلا إذا كان يقبح ذكره لكنه رد هذه الدعوى وعدها خطأ لأن هناك شواهد عديدة تنفي هذه الدعوى ومنها قوله تعالى: "وثيابك فطهر" (المدثر /٤) كناية عن القلب[٤].

وجاء ختام البحث عند السيوطي بشرح لنوع من أنواع البديع يشبه الكناية وهو "الإرداف" وعرفه بأن يريد المتكلم معنى ولا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بدلالة الإشارة،بل بلفظ يرادفه كقوله تعالى : "وقُضِيَ الأمْرُ" (هود/٤٤) والأصل وهلك من قضى الله هلاكه ونجا من قضى الله نجاته[٥].

ونخرج من المقارنة بين الطرحين أنهما في صلب مادتهما واحد، ولا تتعدى الانحرافات بينهما الأمور الشكلية والزوائد الهامشية من حاشية أو تنبيه أو زيادة شاهد

(١) السيوطي، الإتقان،٣/١٢٨/١٢٠.

(٢) المصدر نفسه،٢/١٢٠.

(٣) الزركشي، البرهان،٢/٣٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ٢/٣٢٤.

(٥) السيوطي، المصدر السابق، ٣/١٢٤

قرآني أو حذفه .

ونلاحظ أن السيوطي يعمد إلى تكثيف عبارته وتجويدها من ذلك تسميته السبب الثالث بقوله: أن يكون التصريح مما يستقبح ذكره، وعبر عنها الزركشي بقوله: أن يفحش ذكره في السمع فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع.

وجلي أن عبارة السيوطي في هذا الموطن أدق، لكن هذا لا يمنع كونه تابعا لما خطه الزركشي سائراً في رياض علمه، فللزركشي فضيلة البدء وللسيوطي ميزة التحسين والتهذيب والزيادة .

ويبقى القول أن من انسحب من نتائج على مبحث الكناية ينطبق على جل كتاب الإتقان في مختلف مباحثه وأقسامه وحسبي من الإبانة بالإشارة .

خزانه الأدب وغاية الأرب "لابن حجة الحموي (٨٣٧هـ)

اكتسب الحموي شهرته من خلال بديعيته وشرحها المسمى "خزانة الأدب" وقد أعجب الحموي ببديعتي الحلي والموصلي فأراد أن يضع بديعية تفوقهما وتعفو عليهما، فنظم بديعيته التي جاءت في مائة واثنين وأربعين بيتاً ضمّن كل بيت فيها لوناً بديعيا وأشار إلى اسمه في البيت نفسه .

أما خزانة الأدب التي جاءت لتشرح ما غمض في بديعيته ولتجعل البديعية سهلة المنال، فقد اهتم بها الكثيرون وأثنوا عليها وكانت مثالا صادقا على نتاج الأدب العربي في عصر المماليك إذ ضمت بين جوانبها جملة وافرة من منظوم الكلام ومنثوره[(١)].

وجاءت خزانته على نمط خرج فيه عن تقليد أبناء عصره إذ كان يتناول الفن البديعي الذي يعرضه في بيت بديعيته فيعرفه ويذكر شواهده من شعر ونثر .

وقد حاز الحموي على إعجاب السيوطي فنراه يأخذ برأيه في كثير من مواطن كتابه "عقود الجمان" بل إنه أثبت نص البديعية في ختام حديثه عن البديع في إشارة إلى تقديره لمحتوى هذه البديعية .

(١) أحمد مطلوب، مناهج بلاغية ص٣٣٧، احمد ابراهيم، الصبغ البديعي في اللغة العربية ص٣٩٤

ولعلنا نتوقف فيما يلي عند أبرز المواطن التي تابع فيها السيوطي ابن حجة وأخذ عنه.

من ذلك أخذه لبعض شواهد "المشاكلة" وتعليقاتها كما وردت عند ابن حجة[١].

كما نقل عنه حد التورية المجردة بعد أن اسقط بعض ألفاظه[٢] وتابعه في تحديد مفهوم التورية المبينة والمهيأة ونقل تعريفه وشواهده وتعليقاته على الشواهد[٣].

وفي المحسنات اللفظية ذكر السيوطي الجناس التام الملفق وعرفه بما عرفه ابن حجة ونقل عنه شواهده كما نقل عنه أن الذين فرقوا بينه والتام قليلون[٤].

وأخذ عنه تعريفه للجناس اللفظي ومثل له بشاهد [٥].

واستمر السيوطي في السير على خطى ابن حجة في كثير من مفردات بديعيته والتمثل بشواهده وتعليقاته، ومن ذلك ما ذكره في التطريز والتنسيق وغيرها من مصطلحات البديع.

وهو بذلك كله يحاول أن يضمن بحثه كل ما وصلت إليه قراءاته ولا يتردد في نقلها سعيا منه إلى الإلمام بجوانب بحثه كلها .

وسأكتفي بما أوردته من نقولات للسيوطي عن ابن حجة إذ ليس همي أن أتتبع كل شاردة أو واردة أخذها الرجل عن غيره وأشير بالمثال ليغني عن طول المقال.

وقبل أن أطوي صفحة المصادر التي اعتمد عليها السيوطي في بلاغته أشير إلى أن ما أوردته من كتب ما هو إلا المصادر الأساس التي شكلت الجزء الأكبر من بحوث السيوطي.

(١) الحموي، خزانة الأدب، ص٣٥٦.

(٢) الحموي، المصدر نفسه،ص٣٥١.

(٣) الحموي، المصدر نفسه، ص٣٥٣

(٤) الحموي، المصدر نفسه، ص٢٧.

(٥) الحموي، المصدر نفسه، ص٣٨.

فهو يورد في كتبه نقولات عن كثير من العلماء والأدبــــاء يتطلــب اســتقصاؤها المئات من الصفحات، إذ إنه يكتب وقد اجتمعت بين يديه وفي ذاكرته عشــــرات الكتــب فيختار منها ما يفيد بحثه ويغنيه حتى وإن تعددت هذه الاختيارات وتنوعت.

الفصل الثاني

البلاغة عند السيوطي

منهجية التأليف البلاغي عند السيوطي

حظيت البلاغة وعلومها بمكانة مميزة لدى السيوطي فهو يعتبرها أحد العلوم الذي رزق التبحر فيها إذ يقول : "رزقت التبحر في سبعة علوم : " التفسير والحديث والفقه والنحو ، والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة"(١) وهو هنا يقرر أنه اختط نهج المدرسة الأدبية في البلاغة تلك التي تعني بتناول البلاغة بعيداً عن الإغراق في التقسيمات والتعريفات والاهتمام بالنواحي الجمالية في البحث البلاغي .

ويؤكد السيوطي موقفه هذا من البعد عن النهج الكلامي بل ونعى على من يدخل الفلسفة والمنطق في البحث البلاغي ، وحمل عليهم بشدة ، وحمد الله سبحانه وتعالى لأنه نزه كتابه عن الفلسفة والمنطق . جاء ذلك في أثناء تفضيله لرأي عبد القاهر في تقديم المسند إليه لإفادة العموم ، على رأي القزويني :" لأنا معاشر أهل السنة لا ننجس تصانيفنا بقذر المنطق الذي اتفق أكثر المعتبرين خصوصاً المحدثين والفقهاء من كل المذاهب على تحريمه والتغليظ على المشتغلين به وإهانتهم وعقوبتهم"(٢) .

وعندما اضطر الى الأخذ بمصطلحات المناطقة وتقسيماتهم اعتذر للقارئ عن ذلك، وجاء اعتذاره على هيئة سؤال توقع أن يوجه إليه وهو :" فإن قلت ما بالك تكلمت على تقسيم الدلالة، وذلك من علم المنطق؟ قلت : ليس منه بل هو أمر لغوي وهم يصرحون بأنه ليس من علمهم ، وأنهم إنما يذكرونه في كتبهم لاحتياجهم إليه"(٣).

وعندما تحدث عن نفي الشيء بإيجابه : كرر دعوته الى تجنب مصطلحات المناطقة إذ يقول : " هذا النوع يورده المنطقيون في كتبهم ويعبرون عنه بعبارة على اصطلاحهم ويمثلون له بقولهم : "ما في الدار زيد" ويقصدون عدم وجود زيد في الدنيا

---

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج١، ص ١٩٠

(٢) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٢٦

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٨

أصلاً ، فإذا وقع لأرباب الحديث والسنة مثل هذا فإنهم يتحاشـون عـن التعبـير عنـه باصطلاح المناطقة وقد وسع الله لهم في العبارة فليوردوه على اصطلاح أهل البديع"[١].

وهكذا نلاحظ تكرار السيوطي لحملته ضد المناطقة وعلى المنطق وهو الموقـف المنبعث من التزامه العقدي ، فهو يرى أن البحث في هذا العلم محرم لـذا تراجـع عـن التأليف في هذا العلم ، لكن موقفه هذا من استخدام الفلسفة والمنطق في البحث البلاغي لم يمنعه من الاستفادة بما ورد في كتب أتباع المدرسة الكلامية ، فهـو لـم يخـرج عـن التقسيمات الأساسية التي وضعتها هذه المدرسة، بل اتبع نهجها في كتبه البلاغية، إذ اهتم بالتجريد والتعليل والتحديد ، لكنه تجنب نوعاً ما الخوض في المناقشات وتشعب الآراء أو محاولة التوفيق بينها .

وليس هذا فحسب، بل إن مطالعة لبعض ما كتب السيوطي تظهر ميله إلى التعليل المنطقي واتباعه المنهج الفلسفي في مناقشة الأمور . هذا المنهج الذي ما فتئ يحمل عليه وينعى على من اتبعه - ولعلي أبين ذلك من خلال بعض الأمثلة من كتبه، فهو قد رفـض أن يكون المشبه به عقلياً والمشبه حسياً بل يراه غير جائز إذ يقول :" لم يقع في القرآن، لأن العقل مستفاد من الحس ، فالمحسوس أصل للمعقول وتشبيهه به يستلزم جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً وهو غير جائز[٢] .

ويجعل السيوطي في بحثه للاستعارة إظهار الخفي مهمة الاستعارة أي تمثيل مـا ليس بمرئي حتى يصير مرئياً -ويطابق هذا التعريف المعتقد الأرسـطي القديـم وضـع الشيء أمام العين[٣] -وبناء عليه فإنّه يحلل الآية "وإنّه في أمِّ الكتاب" (الزخرف/٤٤) بحثاً عن الحقيقة وبحثاً عن التشبيه فيقول: "فإن حقيقته وإنه في أصل الكتاب، فاستعير لفظ الأم للأصل لأن الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ الفروع من الأصول وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئي حتى يصير مرئياً"[٤].

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص ١٣٤

(٢) السيوطي ، الإتقان ، ج٢، ص ١٠٤

(٣) رجاء عيد ، فلسفة البلاغة ، ص ٣٠٧

(٤) السيوطي ، المصدر السابق ، ج٢، ١٠٨

وهكذا يطل التعليل المنطقي بين الفينة والأخرى بين ثنايا التأليف البلاغي لدى السيوطي، فهو يفكر بطريقة علماء الأصول أحياناً التي تعرض الأمور على مقياس الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية وتحكم عليها من خلالها .

ويطفو على السطح تساؤل مشروع : ما الذي يدفع السيوطي إلى القول بالتبحر في علوم البلاغة على طريقة أهل الأدب والبلاغة ، وليس على طريقة أهل العجم ؟ مع أن بحثه في البلاغة كان ينحو في كثير من الأحايين منحى المدرسة الكلامية، فهل كانت البلاغة على طريق العرب والبلغاء - كما يسميها السيوطي - غير تلك التي اصطلح على تسميتها المدرسة الأدبية(١)؟ في ظني أن طريقة العرب والبلغاء التي يقصدها السيوطي كانت تعنى بتناول البلاغة دون إقحام المنطق وتعليلاته وقوانينه في البحث وبمقدار النأي عن هذا الحد تكون الطريقة أدبية أو فلسفية، كما أنها تتسع لشيء من التقسيم والتحديد لكنها تركن الى الأدب لتوسيع مدارك الشرح. وعليه يمكن قبول وصف السيوطي لبلاغته.

وبتنوع التأليف البلاغي لدى السيوطي تتعدد طرق التناول المنهجي ، وذلك ضمن الحقول التي يتم فيها البحث ، فالبلاغة في كتب الإعجاز وعلوم القرآن تتمحور حول الإعجاز البلاغي للقرآن، فهو ينطلق من القرآن ويعود إليه ، أما في كتب اللغة فتبرز أقوال اللغويين وتتضح بصماتهم ليغدو الأمر استجلاءً للوجه اللغوي في الظاهرة البلاغية، ونجدها تضيق وتتحدد ولا تخرج كثيراً عما تناوله البلاغيون، وذلك في كتبه البلاغية الصرفة، إذ يتبع منهجهم في تناول علوم البلاغة من بيان ومعان وبديع.

ويحرص السيوطي في كتبه المختلفة على اتباع نهج موحد في التعامل مع مصادر الموضوع الذي يكتب فيه إذ يذكر أسماء العلماء الذين ينقل عنهم ويثبت أقوالهم ومناقشاتهم له، ثم يحاول صياغة جديدة لبعض المفاهيم تميل إلى السهولة في اللفظ والإيجاز في التعبير .

ويعمد السيوطي في عرضه للمادة البلاغية في كتبه البلاغية إلى اتباع الطريقة القياسية في التأليف ، إذ يطرح المتن أولاً بذكر القاعدة -المفهوم- وتفريعاتها ثم يمثل لهذه

---

(١) أحمد مطلوب ،البلاغة عند السكاكي ، ص ٢١١

القاعدة بما لديه من أمثلة وشواهد قرآنية وحديثية وشعرية .

ولعل الناظر في جهد السيوطي البلاغي يلحظ ميزة خاصة إذ يتجه بالتأليف عن العموم إلى الخصوص، كما يرى الدكتور محمد الخفاجي عندما يقول :" ونستطيع أن نرى هذه الظاهرة عند النظر إلى جهوده البلاغية التي تتدرج أيضاً من الأعم إلى الأخص، فلقد بدأ بالإعجاز القرآني واتجه إلى الإعجاز البلاغي ثم إلى البلاغة بعلومها الثلاثة ، ثم اتجه إلى البديع وأخيراً ينتهي به المطاف في البحث البلاغي إلى القول في لون واحد من ألوان البديع"(١).

ويؤكد قوله هذا في استعراض للمراحل الزمنية للتآليف البلاغية للسيوطي، فالسيوطي كتب "معترك الأقران" قبل غيره من الكتب وقد ذكره في كتاب "الإتقان في علوم القرآن" وألف بعده " شرح عقود الجمان" لينهي التأليف بكتاب "جنى الجناس الذي ورد فيه ذكر لبديعيته التي نظمها قبلاً(٢).

وعلى ذلك تكون جهود السيوطي البلاغية قد تدرجت من الإعجاز البلاغي للقرآن ثم إلى تناول علوم البلاغة ثم انتقل الى البديع ثم انتهى به المطاف إلى التخصص الدقيق عندما تناول فناً بديعياً واحدا هو الجناس(٣) .

و نجد السيوطي قد سار ضمن منهج علمي طبيعي في تأليفه البلاغي فجاءت جهوده متدرجة تدرجاً طبيعياً حسب ما تحتمه طبيعة التطور والارتقاء، محاولاً من خلال ذلك تقديم الجهد البلاغي التراثي في كتبه .

وسأعمل في هذا الفصل على تقديم البلاغة السيوطية كما وردت في كتبه بشيء من التفصيل والتحليل مشيراً في الوقت نفسه الى أن اهتمامي سينصب على محاولة إبراز جديد السيوطي في المناقشة والتوجيه والتمثيل دون الإغراق في إعادة ما كتب من مباحث بلاغية وتفصيلات جزئية .

---

(١) السيوطي ، جني الجناس ، ص ٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠

أولاً : الفصاحة والبلاغة

تناول السيوطي مبحث الفصاحة والبلاغة في كتابه "المزهر" حيث اقتصر فيه بالحديث المفصل عن الفصاحة وكتابه "عقود الجمان" وتحدث فيه عن الفصاحة والبلاغة كتمهيد للحديث عن العلوم البلاغية ، حسبما درجت العادة عند علماء البيان .

ونلحظ في المقام الأول تباين النهج في التعامل حيث يعتبر كتاب المزهر " من الكتب اللغوية ، فكان بحث الفصاحة فيه من حيث هي مبحث لغوي مرتكزاً على ما دار بين علماء اللغة من أقوال مدعومة بالآراء التي استقرت عند علماء البلاغة ، فقد تناول السيوطي الحديث عن معرفة الفصيح في فصلين الأول: بالنسبة الى اللفظ والثاني بالنسبة الى المتكلِّم به[١] ويرى: أن الأول أخص من الثاني لأن العربي الفصيح قد يتكلم بلفظة لا تعد فصيحة "[٢].

ثم يشرع بالحديث عن مفهوم الفصاحة فيورد قول الراغب في مفرداته حول الفصاحة التي يراها مأخوذة من الفصح :" وهو خلوص الشيء مما يشوبه وأصله في اللبن، ومنه استعير فصح الرجل ، جادت لغته ، وأفصح تكلم بالعربية "[٣] .

ويختار السيوطي رأي ثعلب في تحديد مدار الفصاحة في الكلمة بكثرة استعمال العرب لها ، كما يذكر الضابط البلاغي لهذه الكثرة وهو خلوص المفردة من تنافر الحروف ومن الغرابة ومن مخالفة القياس "[٤] .

وبعد أن يوضح عناصر هذا الضابط يقف السيوطي عند أبرز القضايا المتعلقة بالفصاحة نقلاً عن بهاء الدين السبكي كتحديد مفهوم الغرابة وتخصيصه بالعرب العُرباء لا العامة ، وكذلك مخالفة القياس والضرائر الشعرية التي يراها السبكي خروجا عن الفصاحة في حين يرى حازم القرطاجني في "منهاج البلغاء " أن منها المستقبح ومنها غيره ، كما يقف عند الابتذال لينهي حديثه بوقفة عند كتاب الفصيح ما له وما عليه .

---

(١) السيوطي ، المزهر ، ج١، ١٨٤

(٢) المصدر نفسه ، ج١/١٨٤.

(٣) الراغب الأصفهاني ، المفردات ، ٣٨٨ .

(٤) السيوطي ، المصدر السابق ، ج١/١٨٥

وهكذا نجد السيوطي في حديثه اللغوي ، يركز على مصطلح "الفصاحة " في اللغة وامتدادات هذا المصطلح بين أرباب هذا الفن دون ان يكون له رأي خاص باستثناء تبنيه لآراء غيره ، وهي خصلة نلحظها كثيراً في بحوث السيوطي البلاغية .

وفي كتابه " شرح عقود الجمان " يتدرج السيوطي في تناوله لمصطلحي الفصاحة والبلاغة حيث يبدأ بتناول حدود الفصاحة والبلاغة والبراعة(١) :

يُوصَـفُ بِالفَصَاحَـةِ المُرَكَّـب ... وَمُفـرَدٌ ومُنشَـئٌ مُرَتَّـب
وَغَـيرُ ثَـانٍ صِفَـةٌ بِالبلاغَـةِ ... وَمِثلُهَـا فِـي ذلـكَ البَرَاعَـةُ

فالفصاحة صفة للمتكلم والمفرد والمركب وينبه السيوطي الى أنه اختار لفظة "المركب" عن قول القزويني " الكلام "(٢) وذلك لأن لفظ المركب يعم الكلام والجملة التي ليست بكلام كجملة الصلة والجزاء والتركيب الإضافي، وكل ذلك يوصف بالفصاحة"(٣).

أما البلاغة فيوصف بها المتكلم والكلام ولا يوصف بها المفردأو المركب الذي لا يفيد(٤)، ومثل البلاغة تكون البراعة التي يوصف بها الكلام والمتكلم دون الكلمة .

ثم يشرع السيوطي بتفصيل شروط الفصاحة في المفرد والكلام ، وهو في ذلك لا يخرج كثيراً عما جاء به القزويني في تلخيصه، إذ يذكر في شروط فصاحة المفرد خلوصه من تنافر الحروف ويقسمه الى قسمين الأول ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل وعسر النطق بها . "كهعخع" والثاني ما دون ذلك كاستشزر(٥) ، من قول امرئ القيس:

غَدائِرُهُ مُستَشزِرَاتٌ إلى العُلا ... تَضلُّ العِقَاصُ في مُثنَى وَمُرسَلِ

ولم يفصل القزويني في تلخيصه لنوعي التنافر(٦) ، لكنه ذكرها في الإيضاح.

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٣

(٢) القزويني ، التلخيص ، ص ٩

(٣) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٣

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣

(٥) المصدر نفسه، ص ٤

(٦) القزويني ، المصدر نفسه ، ص ٩

ويختار السيوطي جعل ضرائر الشعر من بـــاب مخالفـــة قواعـــد العربيـــة[١] ، وفي تناول السيوطي لشروط فصاحة الكلام وخلوصه من ضعف التأليف يستشهد بقـــول الشاعر:

جفوني ولم أجف الأخلاء إنني ....

متبعاً السبكي ومفضلاً إياه على شاهد القزويني، ضرب غلامُه زيداً، ويعقب على ذلك:

" ثم ظهر لي أن هذا البيت ليس من هذا القبيل لأنه مــن بــاب التنــازع وعــود الضمير فيه على متأخر ليس ضعفاً وإنما ذلك في غيره سوى ما استثنى أي كباب نعـــم وبئس ، وإنما يسلم إذا رفع الأخلاء فاعلاً لجفوني وجعل من باب أكلوني البراغيث ، فإنه حينئذ ليس بفصيح فلنحمل المثال عليه" [٢].

وفي شرط خلوص الكلام من التنافر يناقش السيوطي جعل قول ابي تمام :

كَريمٌ متى أمدحْه أمدحْه والورَى معي وإذا ما لُمْتُه لُمْتُه وحْدِي

شاهداً للتنافر ويرى متابعا الخفاجي والسبكي أن التنافر لا يعود للثقل بين الحـــاء والهاء ، كما ذكر القزويني في الإيضاح ، وذلك لوروده في القرآن " فسبحه " بل لتكرار كلمة أمدحه، خاصة لما فيها من الثقل[٣] .

ثم يفصل السيوطي القول في الشرط الثالث وهو خلوه من التعقيد سواء أكان لخلل في النظم من مثل قول الفرزدق:

ومَا مِثلُهُ في النَّاس إلا مُملَّكاً أبو أُمِّهِ حَيٌّ أبُوهُ يُقارِبُهْ

أم لخلل معنوي بأن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الـــذي هـــو ظـــاهر اللفـــظ المقصود ظاهراً كقول العباس بن الأحنف :

سَأطلبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنكُم لِتقربُوا وتَسكُبُ عَيناي الدُّموعَ لِتَجمُدا

فقد أخطأ حين كنى عما يوجبه التلاقي من السرور بجمود العيـــن ، لأن جمـــود

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٤

(٢) المصدرنفسه ، ص ٥

(٣) المصدرنفسه ، ص ٥

العين خلوها من البكاء حين إرادته ويكون كناية عن البخل[١].

ويتابع السيوطي القزويني[٢] في تضعيف شرط التكرار وتتابع الإضافات إلا إذا أفضى الى ثقل أو تنافر، وحينئذ يكون مُتَضَمَّناً ما سبق من شروط ويستشهد لذلك بآيات قرآنية توالت إضافتها دون ان تخل بفصاحتها من مثل قوله تعالى: "والشمس وضحاها" (الشمس/١) الى آخر السورة مكرراً الضمائر[٣].

ويلفت السيوطي النظر الى أنه كرر مصطلحات "العدم ، والفقد ، واللام "في حديثه عن الفصاحة لأن المقصود نقد كل واحد من هذه الأمور لا مجموعها[٤]، وهذا ما لم يشر إليه القزويني في تلخيصه .

وينهي السيوطي حديثه عن الفصاحة وشروطها بذكر حد فصاحة المتكلم وهي عنده ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح ، مشيراً الى أنه من تكلم بالفصيح وليس له ملكة فغير فصيح[٥].

وبعد تناول السيوطي لشروط الفصاحة في المفرد والمركب والمتكلم يشرع بالحديث عن البلاغة في الكلام وفي المتكلم .فهي في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، والحال هو الأمر الداعي الى التكلم على وجه مخصوص ومقتضاه يختلف بحسب اختلاف مقامات الكلام . ولكل كلمة مع أخرى تصحبها في أصل المعنى مقام ، وإنما يقضي على الكلام بالارتفاع في الحسن والانحطاط بمطابقته للاعتبار المناسب وعدمه[٦].

ونلحظ هنا أن السيوطي لا يكاد يخرج عن ألفاظ القزويني بل إنه يُقصِّر أحياناً في إيصال المعنى المراد بعبارة سهلة وللتدليل على ذلك لنقارن بين فقرتين تناولتا المضمون نفسه عند كلا العالمين؛ يقول السيوطي:

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٥

(٢) القزويني ، التلخيص ، ص ١٣

(٣) السيوطي ، المصدر السابق، ص ٦

(٤) المصدر نفسه، ص ٦

(٥) المصدر نفسه، ص ٦

(٦) المصدر نفسه، ص ٦

" لما تقرر أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب ما يناسبه ، عرف أن اللفظ إنما يوصف باعتبار إفادته المعنى بالتركيب لا من حيث إنه لفظ وصوت ، لأنه باعتبار ذلك لا يوصف بكونه مطابقاً أو غير مطابق ضرورة .وإن ذلك إنما يتحقق عند تحقق المعاني والأغراض التي يصاغ لها الكلام ، وقد يسمى هذا الوصف فصاحة أيضاً، كما يسمى بلاغة، أما الفصاحة بهذا الاعتبار فهي من صفات اللفظ دون المعنى قطعياً"[١]، أما القزويني في تلخيصه فيقول :

"فالبلاغة راجعة للفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب، وإذا لم يكن الكلام مركبا من ألفاظ فلا يسمى بليغاً، وإنما يسمى فصيحاً إذا توافرت فيه شروط الفصاحة"[٢].

ولعل مرد ذلك عند السيوطي هو محاولته شرح أرجوزته وتبسيطها وتوضيح كل مصطلحات جملته الأمر الذي يدفعه الى الإسهاب وتدوير العبارة أحياناً ، فالفقرة السابقة كلها كانت شرحاً لمتنه الذي يقول فيه :

ويوصف اللفظ بذلك باعتبار ... افادة المعنى بتركيب يصار
وقد يسمى ذاك بالفصاحة ... وللبلاغة الكلام ساحة[٣]

ثم تحدث السيوطي عن طرفي البلاغة فرأى أن لها طرفين أعلى وهو حدّ الإعجاز، بأن يرتقي الكلام في بلاغته الى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته[٤]، وما يقرب من ذلك.

ويعقب السيوطي على ذلك بتقديم تصوره حول هذه المسألة فيرى " أنه يمكن أن يقال الأعلى حقيقي : وهو حد الإعجاز ، ونسبي : أي بالنسبة لما يقدر عليه البشر ، وهو ما يقرب فيه ، فإن الأول خارج عن طوق البشر"[٥].

وطرف البلاغة الثاني : الأسفل وهو ما لو غير الكلام عنه الى ما دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات في خلوة من الحسن وإن كان صحيح الإعراب[٦].

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٧ ، ص ٧

(٢) القزويني ، التلخيص ، ص١٤

(٣) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٧

(٤) المصدر نفسه، ص٧، التفتازاني، المختصر، ج٢/١٣٩.

(٥) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٧

(٦) المصدر نفسه ، ص ٧.

وبينهما مراتب كثيرة متفاوتة، وتتبع بلاغة الكلام وجوه أخرى سوى المطابقة والفصاحة تورث الكلام حسناً وهي الأنواع المذكورة في علم البديع ، وهي إنما تعد محسنة بعد رعاية البلاغة وجعلها تابعة لبلاغة الكلام دون المتكلم لأنه لا يوصف بها إلا الكلام[١] .

أما البلاغة في المتكلم فتكون على نسق الفصاحة بمعنى أنها ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ [٢].

ومما سبق يقرر السيوطي تبعاً لغيره من البلاغيين " أن كل بليغ كلاماً كان أو متكلماً فصيح لجعل الفصاحة شرطاً للبلاغة وليس كل فصيح بليغاً، لأن الفصيح قد يغني عن المطابقة له" [٣].

ويختم السيوطي تناوله للبلاغة ببيان أن مرجعها التحرز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، والى تمييز الفصيح من غيره، ثم يفصل في بيان العلوم التي يعرف بها الفصيح من غيره، وهي علم اللغة والتصريف وعلم النحو، في حين جاء علم المعاني ليحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى، وكان علم البيان لتمييز السالم من التعقيد المعنوي وأخيراً كان علم البديع لمعرفة توابع البلاغة من وجوه تحسين الكلام [٤].

وهكذا نجد السيوطي في تناوله لمصطلحي الفصاحة والبلاغة قد سار في ركب من سبقه من علماء اللغة والبلاغة ، فكانت معظم آرائه اجتلاباً لآرائهم واختيارات من تآليفهم في حين كانت مناقشاته لهم تفضيلاً لرأي على آخر أو تفصيلاً لاقتضاب موجز .

ومع ذلك فلا نعدم روحاً سيوطية في الكتابة تتبدى من خلال تقديم تعليل لتفضيل شاهد على آخر أو تقديم رأي على رأي ، ويظهر حرص السيوطي - من خلال اطلاعه - على سد النقص في عبارات الأوائل كما حصل في تحديد شروط الفصاحة، وكذلك سمة الشرح والتوضيح في مجمل بحث السيوطي ومحاولة تقديم المعلومة بأوضح صورة حتى وإن طالت العبارة مما يفقدها أحياناً سمة التوضيح التي سيقت لأجلها.

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٧.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧.

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨.

ثانياً : علم المعاني

تناول السيوطي علم المعاني ومباحثه التي انتهت إليه في كتبه :

" شرح عقود الجمان " و " إتمام الدراية لقراء النقاية " و " معترك الأقران في إعجاز القرآن " و " والإتقان في علوم القرآن ".

وهو في تناوله هذا قد تأرجح قلمه بين الإيجاز والإطناب والتلخيص والتفصيل ، فقد عرف علم المعاني متابعاً القزويني فقال : هو علم تعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال[١].

ويذكر أن علم المعاني ينحصر في ثمانية أبواب إذ يقول : إن الكلام إما خبر أو إنشاء ، وإن الخبر لا بد له من إسناد ومسند إليه ، وهذه ثلاثة أبواب والمسند قد تكون له متعلقات إذا كان فعلاً أو ما في معناه ، وهذا هو الباب الرابع ثم القصر وهو الباب الخامس والإنشاء وهو الباب السادس ثم الفصل والوصل وهو الباب السابع والإيجاز والمساواة وهو الباب الثامن[٢].

وهو في تقسيمه هذا يتابع القزويني ، في جعله الإنشاء إزاء الخبر، وهكذا فإن تقسيمه لموضوعات المعاني مبوب في هيئة منهجية تبدأ من العام الى الخاص.

ولعلني في السطور القادمة أتجول معه عبر تفريعات بحثه لمصطلح المعاني، كيما أتلمس منهجيته وطرائق تناوله ..

- صدق الخبر وكذبه

وذكر البيت الآتي عن الخبر ضمن أرجوزته[٣]

مُحتَمِلٌ للصدقِ والكَذِبِ الخَبَرُ   وغيرُهُ الإنشاءُ ولا ثالثَ قر

وعقّب عليه قائلاً : "هذا البيت من زياداتي إلا أن في التلخيص إشارة اليه في بيان

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٩، القزويني، التلخيص، ص١٦.

(٢) القزويني ، المصدر السابق ، ص١٦. السيوطي، المصدر السابق، ص٩.

(٣) السيوطي، المصدر السابق ، ص ٩

وجه الحصر، وحاصله إن الكلام إما خبر أو إنشاء لا ثالث لهما ، لأن الكلام إن احتمل الصدق والكذب فهو الخبر ، وإلا فهو الإنشاء ، وذكر ان من قسم الكلام إلى ثلاثة خبر وإنشاء وطلب قد أخطأ [١].

ويتناول صدق الخبر وكذبه وأن في ذلك أقوالاً أصحها "إن الصدق مطابقة الخبر للواقع والكذب عدم مطابقته ، ولو كان الاعتقاد بخلاف ذلك في الحالين. والثاني: أن الصدق المطابقة لاعتقاد المخبر ولو خطأ والكذب عدم المطابقة للاعتقاد ولو كان صواباً"[٢].

والرأي الثالث للجاحظ:" وهو الصدق المطابقة للواقع مع اعتقاد المخبر المطابقة والكذب عدم المطابقة للواقع مع اعتقاد عدمها، ووافق هذا الرأي الراغب الأصفهاني،إلا أنه قال في الصور الأربع الواسطة توصف بالصدق والكذب بجهتين بالصدق من حيث مطابقته للخارج أو الاعتقاد وبالكذب من حيث انتفاء المطابقة للخارج أو الاعتقاد" [٣].

ويميل السيوطي إلى ترجيح القول الأول ويمثل له بحديث الرسول عليه السلام: "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" الذي يدل على انقسام الكذب إلى متعمد وغيره .

ثم ينتقل السيوطي إلى بيان أحوال الإسناد الخبري ، فيرى " أن قصد المخبر بخبره إفادة المخاطب أحد أمرين : إما الحكم الذي تضمنه وهو النسبة المحكوم بها ، أو كون المخبر عالماً بالحكم ، ويسمى الأول فائدة الخبر والثاني لازم فائدة الخبر[٤].

ويضيف السيوطي أن الخبر قد يراد لغير هذين الأمرين حين ينزل العالم منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم ، كقولك لمن يعق أباه وأنت تعلم أنه أبوه: (زيد أبوك فأحسن إليه) فيعامل معاملة الجاهل بأبوته لعدم عمله بمقتضى علمه[٥].

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٩.

(٢) المصدر نفسه ، ص٩

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩-١٠

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٠

والملاحظ أن هذا النوع الذي يتحدث عنه السيوطي يمكن أن يدرج تحت ما يسمى لازم الفائدة إذ إن المخاطب يعرف ما أخبر به. كما أننا نستطيع أن ننظر الى هذا الشاهد على أنه خبر مجازي خرج عن فائدة الخبر إلى التوبيخ .

ثم يقسم السيوطي أحوال الإسناد الخبري حسب حاجة المخاطب إن كان خالي الذهن من الحكم أو كان متردداً في الخبر طالباً له أو كان منكراً له، والأول سماه ابتدائياً والثاني طلبياً والثالث إنكارياً[١].

وهو هنا يتابع القزويني بألفاظه ويستشهد بأمثلته أنفسها[٢].

وقد يلقى الكلام مؤكداً إلى خالي الذهن، كما يلقى للمتردد إذا قدم له ما يلوح بالخبر كما في قوله تعالى (ولا تخاطِبْني في الذينَ ظَلَمُوا إنَّهمْ مُغرَقُون) (المؤمنون/ ٢٧).

وقد يجعل المقر كالمنكر إذا ظهر عليه شيء من علامات الإنكار كقوله :

جَاءَ شَقِيقٌ عارِضاً رُمْحَهُ إنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِماحُ

وقد يجعل المنكر كالمقر إذا كان معه دلائل لو تأملها ارتدع عن إنكاره[٣].

ويأخذ السيوطي برأي التفتازاني في رد الشاهد الذي تمثل به القزويني على هذه المسألة وهو قوله تعالى: (لا رَيبَ فيهِ) (البقرة/٢) وقال عنه :"إنه ليس منه بل هو تنظير للمسألة بتنزيل وجود الشيء منزلة عدمه بناء على وجود ما يزيله ، فإنه نزل ريب المرتابين منزلة عدمه تعويلاً على ما يزيله حتى صح نفي الريب على سبيل الاستغراق[٤].

وأشار السيوطي إلى أن اعتبارات النفي كذلك من حيث الاستغناء عن المؤكدات في الابتدائي نحو : ليس زيد قائماً ، والتقوية بمؤكد في الطلبي نحو : ما زيد بقائم ، ووجوب التأكيد في الإنكاري نحو : والله ما زيد بقائم[٥]. وقد زاد السيوطي المسألة توضيحاً مع ذكر الأمثلة بينما اقتصر القزويني على القول "وهكذا اعتبارات النفي"[٦] دون أمثلة .

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ١١

(٢) القزويني ، التلخيص ، ص ٢٠

(٣) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ١١

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٢

(٥) المصدر نفسه ، ص ١١

(٦) القزويني ، المصدر السابق ، ص ٢٢

- **الحقيقة العقلية والمجاز العقلي :**

فالإسناد منه حقيقة عقلية وهي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر وأقسامه أربعة :

الأول : ما طابق الواقع والاعتقاد كقول المؤمن: أنبت الله البقل .

والثاني: ما طابق الاعتقاد فقط كقول الجاهل (الكافر) : أنبت الربيع البقل .

والثالث: ما طابق الواقع فقط ، كقول المعتزلي - لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها عنه -: خلق الله الأفعال كلها .

والرابع: ما لا يطابق الواقع ولا الاعتقاد ، كقولك جاء زيد وأنت تعلم أنه لم يجيء دون المخاطب[١].

ومن الإسناد ما يسمى بالمجاز العقلي وهو إسناد الفعل وشبهه إلى ما ليس له، بل لملابسة بتأول وأن تكون هناك قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له[٢].

وأشار إلى أن إسناد الفعل إلى الفاعل والمفعول به حقيقة ، أما إسناده إلى غيرهما فمجاز[٣].

ويتمثل السيوطي فيما سبق خطى القزويني أمثلة وضبطاً للقاعدة عدا مثال واحد، وهو تمثيله للمصدر [جد جدهم][٤] ، فيراه أحسن من تمثيل القزويني و"شعر شاعر"، لأن الشعر هنا بمعنى المفعول ، لذلك عدل عنه .

وقسم المجاز باعتبار طرفيه المسند والمسند إليه أربعة أقسام لأنها إما حقيقتان مثل: أنبت الربيعُ البقلَ، أو مجازان مثل: أحيا الأرضَ شبابُ العمر ، أو الأول حقيقة والثاني مجاز مثل أنبت البقلُ شبابَ العمر ،أو الأول مجاز والثاني حقيقة مثل أحيا الأرضَ الربيعُ [٥].

ويرى أنه لا بد للمجازمن قرينة صارفة عن إرادة الظاهر وهي إما لفظية أو معنوية أو عادة أو صدوره عن الموحد [٦].

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ١٢

(٢) المصدر نفسه ص١٢.

(٣) المصدر نفسه .ص١٢

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣

(٥) المصدر نفسه .ص١٣

(٦) المصدر نفسه .ص١٣

وكل ما ذكره السيوطي عن المجاز تابع فيه القزويني واستشهد بشواهده ذاتها.

-أحوال المسند إليه :

تناول السيوطي فيه نكت حذفه التي فيها الاحتراز عن العبث لدلالة القرينة كقول المستهل: الهلال. ومنها اختبار السامع هل ينتبه أم لا،واختبار مقدار تنبهه هل ينتبه بالقرائن الخفية أم لا، وكذا العدول إلى أقوى الدليلين العقل واللفظ ، والعقل أقوى لأن دلالته قطعية[١].

ويرى السيوطي متابعاً السبكي أن من نكت حذفه أيضاً: صونه عن ذكرك له بلسانك، آخذاً على القزويني ذكره للفظة (إيهام) في قوله : ومنها إيهام صونه عن لسانك[٢]"، إذ لا حاجة إلى ذكرها [٣].

وفي نكت ذكر المسند إليه أورد السيوطي أنه يذكر لأمور عديدة منها كونه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ومنها الاحتياط لضعف التعويل على القرينة وإيهام غباوة السامع[٤] ...

وعدل السيوطي عن الأخذ بقول القزويني بأن من نكت الذكر :" بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب "[٥] إلى القول : بسط الكلام حيث يطلب طول المقام استعذاباً له نحو (هي عصاي) (طه/ ١٨) محتجاً برأي السبكي بأن المطلوب - في الآية - هو الكلام المستدعى من موسى لا الإصغاء ، وإنما أخذ ذلك الإصغاء من جانبه تعالى، فلذلك لا يسمى إصغاء ولو سمي ، فإنما المقصود كلام الله تعالى له وأن يصغي هو له، وذلك لا يحصل ببسط الجواب إلا أن يقال قصد تطويل المكالمة والمراجعة "[٦]، وكأن السيوطي بذلك يقرر أنه لا يلتزم بما قاله القزويني رغم أنه ينظم تلخيصه بل يختار ما يراه مقنعاً

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان ، ص ١٤

(٢) القزويني ، التلخيص ، ص ٢٩

(٣) السيوطي ، المصدر السابق، ص ١٤

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥

(٥) القزويني ، المصدر السابق ، ص ٣٠

(٦) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ١٥

من غيره من آراء، وهو ما قرره سابقا ويلتزم به في مجمل تأليفه .

وفي تعريف المسند إليه ذكر السيوطي أن هذا التعريف يتم بالإضمار ، وذلك لكون المقام للمتكلم أو الخطاب أو الغيبة"[١]، وأومأ الى أن الأصل في الخطاب أن يكون لمعيَن ، لكنه قد لا يقصد به معيَن ليعم كل مخاطب على سبيل البدل[٢]. كقوله تعالى: "ولو تَرى إذ وِقفوا على النَّار" (الأنعام/٢٧)

ومن طرق تعريف المسند إليه: العلمية[٣] وتكون لنكت منها: إحضاره بعينه في ذهن السابع ابتداء باسمه الخاص كقوله تعالى: "قل هو الله أحد" (الإخلاص/١) ومنها تعظيمه أو إهانته لكونه من الأعلام المحمودة أو المذمومة ، ومنها التبرك وغيرها .

ومن طرق تعريفه أيضا كونه موصولاً، ويكون ذلك لنكت كثيرة ذكرها السيوطي ومثل لها بشواهد شعرية وآيات قرآنية[٤]، لكنا نقف عند معالمه لنكتة كونه ذريعة لأجل تحقيق الخبر ، فقد أورد السيوطي أن القزويني يضعف هذه الفائدة "لأنه لا يظهر فرق بين الإيمـاء الى وجه بناء الخبر وتحقيق الخبر"[٥] ثم أثبت بعد ذلك رد السبكي الذي يرى "بأن الفرق واضح فإن الإيماء إلى وجه بنائه أن يذكر ما يناسبه ، وتحقيقه أن يذكر ما يحقق وقوعه بأي نوع كان ، والفرق بين بناء الشيء على غيره وتحقيقه واضح"[٦]، وهنا أيضاً يقدم السيوطي رأي السبكي على رأي القزويني .

ومن طرق تعريف المسند إليه كونه اسم إشارة، وذلك لنكت عديدة كأن يقصد تمييزه أكمل تمييز وكالتعريض ببلادة المخاطب، وبيان حال المشار إليه من قرب وبعد وذكر السيوطي هنا إلى أن القزويني وغيره أثبتوا - التوسط - [من قرب وبعد وتوسط]، لكنه فضل تركها لأن" المختار عنده تبعاً لسيبويه وابن مالك انه ليس لاسم الإشارة إلا مرتبتان"[٧] مستدركاً أنه يمكن دخوله في العبارة على طريق أهل البيان، بمعنى أنه حكم

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ١٥

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥

(٣) المصدر نفسه ص ١٦

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٦

(٥) القزويني ، الإيضاح ، ص ٦٩

(٦) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ١٧

(٧) المصدر نفسه، ص١٧ .

المنطق النحوي رغم جوازها بلاغياً.

وأضاف السيوطي زيادة في نكته وهي أن لا يكون الطريق الى معرفة المسند إليه إلا باسم الإشارة [١]، وقد ذكره السكاكي في المفتاح [٢].

وذكر السيوطي أن المسند إليه يعرف بالألف واللام لنكت منها الإشارة الى محمود لفظاً كقوله تعالى : " فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة ... "(النور/ ٣٥) أو تقديراً نحو :" وليس الذكر كالأنثى " (آل عمران/ ٣٦) – وتقسيم الإشارة الى المعهود لفظاً وتقديراً مما زاده السيوطي على القزويني – أو حساً وهو مبصر كقولك لمن سدد سهماً : القرطاس، أو علماً [٣].ومنها الإشارة إلى نفس الحقيقة نحو الرجل خير من المرأة . ومنها كذلك استغراق الإفراد ، إما حقيقة أو عرفاً [٤]. نحو : عالم الغيب والشهادة ، وجمع الأمير الصاغة .

ويعرف المسند إليه بالإضافة لفوائد منها أن تكون أخصر طريق والمقام يقتضي الاختصار وكذلك الاستغراق والترفق.

-تنكير المسند إليه

ذكر السيوطي أنه ينكر لأمور منها [٥]: الإفراد كقوله تعالى " وجاءَ مِنْ أقْصَى المدينةِ رجلٌ يَسْعَى " (يس/٢٠) والنوعية بأن يراد نوع مخالف للأنواع المعهودة نحو " وعلى أبْصارِهِم غشاوة " (البقرة/٥٠).

ومنها التعظيم والتحقير والتكثير : وهو في ذلك كله متابع القزويني حتى في شواهده ، لكنه زاد عليه فائدتين ، الأولى : قصد العموم بعد النفي لأن النكرة في سياق النفي تعم ،والثانية التجاهل وإيهام أنك لا تعرف شخصه [٦]. وواضح تأثير التفكير

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان، ص١٧.

(٢) السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص١٢٨

(٣) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ١٨

(٤) المصدر نفسه ص١٨.

(٥) المصدر نفسه ص١٨.

(٦) المصدر نفسه ص١٩.

النحوي في الأولى وتوظيف الفكرة النحوية لخدمة الفن البلاغي فيها.

ويبدو التداخل بين التفكير النحوي والفقهي والأصولي إضافة للبياني واضحاً جلياً عند السيوطي، وذلك حين ناقش القاعدة التي تقول: "إذا كرر الاسم مرتين فإن كانا نكرتين، فالثاني غير الأول، أو معرفتين أو الثاني فقط ، فهو عينه أو الأول معرفة والثاني نكرة فقولان"[١]. ويستشهد للأول والثاني بقوله تعالى: " فإنَّ مَعَ العسْرِ يُسراً، إنَّ مع العسر يسرا" (الشرح/ ٦) والثالث بالآية : "...... فيها مصباح، المصباح" (النور/ ٣٥)، وكل ذلك نقلاً عن السبكي.

ويعقب السيوطي على ذلك بقوله :" وأصل هذه القاعدة الحديث الشريف: " لن يغلب عسر يسرين"، وقد روي مرفوعاً وموقوفاً ، ثم يورد روايات هذا الحديث وتخريجها ليقرر في النهاية " أنها شواهد يقوي بعضها بعضاً " ويقف بعد ذلك عند رأي بهاء الدين السبكي الذي يرى أن هذه القاعدة غير محررة لانتقاضها بأمثلة كثيرة منها في المعرفتين قوله تعالى:" هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" (الرحمن/٦٠) فإنهما معرفتان والثاني غير الأول، لأن الأول العمل والثاني الثواب، وقوله أيضاً: "وكَتَبْنا عليهم فيها أنَّ النفس بالنَّفس" (المائدة/٤٥) أي المقتولة بالمقاتلة، وكذا قوله تعالى: "وما يتبع أكثرهم إلا ظناً، إن الظنَّ لا يغني..." (هود/ ٣٦) فإن الثاني فيه غير الأول، وقوله تعالى: "يَسألونَكَ عنِ الشهرِ الحرامِ قتالٌ فيه قلْ قِتالٌ فيه كَبير" (البقرة/٢١٧)، فإن الثاني هو الأول .

ويرد السيوطي عليه بقوله :" الظاهر أن هذه الآيات ونحوها لا تخرج عن القاعدة عند التأمل ، فإن اللام في الإحسان فيما يظهر للجنس لا للعهد –كما قال– وحينئذ يكون في المعنى كالنكرة ،وكذا آية النفس ، بخلاف آية العسر، فإن "أل" فيها إما لمعهود ذهني وهو ما حصل للنبي عليه السلام وللمسلمين من شدة، أو للاستغراق، كما يفيده الحديث، وكذا آية الظن لا نسلم فيها أن الثاني غير الأول، بل هو عين الأول قطعاً ، إذ ليس كل ظن مذموماً، كيف وأحكام الشريعة ظنية، وكذا آية القتال ليس الثاني فيها عين الأول بلا شك، لأن المراد بالأول المسؤول عنه القتال الذي وقع في سرية ابن الحضرمي سنة اثنتين من الهجرة والمراد بالثاني جنس القتال لا ذاك بعينه، فتأمل هذا وخرج ما أشكل عليك[٢].

مما سبق نلحظ كيف يحتكم السيوطي إلى منظومة التفكير الموسوعي لدى مناقشته

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٢٠-٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠.

للمسألة ، فهو يوظف وعيه الشرعي واللغوي والنحوي ، وحتى المنطقي للتدليل على صحة أقواله وبيان سبب ترجيحه لرأي على آخر ، وهو في هذا يؤكد مبدأ التبادل النفعي بين علوم العربية بعضها ببعض ، وبينها وبين علوم المعرفة الإنسانية.

ثم انتقل السيوطي بعد ذلك الإسهاب إلى اتباع المسند إليه وأومأ إلى أن وصفه يأتي لأمور منها: كشفه بأن يكون محتاجاً إلى كشف معناه[١] كقوله تعالى: "هدىً للمتقين، الذين يؤمنون" (سورة البقرة/آية٢-٣) ومنها تخصيصه بصفة تميزه وتأكيده ومدحه وذمه، أما إتباعه بعطف البيان فلكشفه وإيضاحه باسم مختص به.

وأما العطف فلتفصيل المسند إليه أو المسند ، أورد السامع إلى الصواب في العطف بـ"لا" نحو: زيد لا عمرو، أو صرف الحكم إلى آخر في العطف بـ "بل" نحو : جاء زيد بل عمرو، أو لغير ذلك من المعاني التي يقتضيها سائر حروف العطف [٢].

ويناقش السيوطي نكت الإبدال التي يأتي منها زيادة التقرير والمبالغة ،ويرى أن بدل الخلط لا يرد هنا لأنه خارج عن الفصاحة في حين أثبت دلالة بدل الكل من البعض، رغم إنكار جمهور النحاة - وتابعهم البلاغيون - له ، لكنه يختار الرأي المجيز له ويستدل عليه من القرآن بقوله تعالى: (فأولئك يَدخُلونَ الجَنَّة ولا يُظلَمُونَ شيئاً، جناتُ عَدْنٍ) (سورة مريم/آية٦٠-٦١)، فجنات أعربت بدلاً من الجنة؛ ونكتته البيانية تقرير خلودهم وإقامتهم بكونها عدنا، وأنها من موعود الرحمن الذي لا يخلف وعده ، ولتقرير أنها جنات كثيرة لا جنة واحدة[٣] .

وذكر السيوطي أن فصل المبتدأ أو ما في معناه بضمير الفصل يكون ليقصد تخصيص المسند إليه بالمسند أو للدلالة على أن ما بعده خبر لما قبله لا صفة أو للتأكيد مشيراً إلى أن الزمخشري ذكرها مجتمعة وأهملها القزويني [٤].

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٢١

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢

(٣) المصدر نفسه، ص٢٥

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٢

-تقديم المسند إليه وتأخيره

ومما بحثه السيوطي تقديم المسند إليه وتأخيره ، أما تأخيره فلأن المقام يقتضي تقديم المسند ، وذكر أنه قدم التأخير على التقديم عكس التلخيص لأمرين أولهما : أن الكلام في التقديم يطول ويستتبع أموراً تتعلق به ، وثانيهما : قياساً على تقديم الحذف على الذكر لأن كلاً منهما خلاف الأصل فالنكتة فيه أشد من الأصل ، وألمح الى أن المسند إليه يقدم لكونه المهم ، وأن ذلك الاهتمام حاصل بأمور منها : أن يكون الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ... ومنها أن يتمكن الخبر في ذهن السامع لأن في المبتدأ تشويقاً(١) إليه كقول أبي العلاء :

والَّذي حَارَتْ البَرِيَّةُ فيهِ حَيوانٌ مُسْتَحدَثٌ من جَمادِ

ومنها تعجيل المسرة أو المساءة وإيهام أنه يُستلَذُّ بذكره ، والسيوطي في كل ما تقدم يتابع القزويني ويستشهد بأمثلته(٢) .

ووقف السيوطي طويلاً عند جعل التقديم للتخصيص حيث أورد رأي عبد القاهر الجرجاني بإفادة تخصيصه بالخبر الفعلي إن ولي أداة نفي دون فاصل(٣). وأسهب السيوطي في نقل مفردات هذه المسألة عن الجرجاني وأثبت في آخرها مخالفة السكاكي لبعض شروط هذه المسألة وتفاصيلها(٤).

وقد يقدم المسند إليه لإفادة العموم - كما يقول السيوطي - نحو :" كل إنسان لم يأت ، فهذه الصيغة تفيد نفي الحكم عن كل واحد ، أما إذا أخرنا لفظ "كل" نحو: "لم يأت كل إنسان " فإنه يفيد نفي الحكم عن مجموع الأفراد لا عن كل فرد ، وهو يصدق بنفي فرد واحد(٥).

وذكر السيوطي أن جميع ما تقدم من هذا الباب من الحذف والذكر وغيرها هو مقتضى الظاهر، إلا أن الكلام قد يخرج على خلافه لنكتة ،من ذلك وضع المضمر موضع الظاهر نحو : نعم عبداً، مكان: نعم العبد، وعلق على المثال قائلاً: إذ المقام يقتضي الإظهار لعدم تقدم المسند إليه فأضمر معاداً إلى متعقل في الذهن والتزم تفسيره بنكرة ليعلم جنس المتعقل(٦).

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص٢٣.

(٢) القزويني ، التلخيص ، ص ٣٩-٤٠

(٣) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٢٤ ، و الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص ١٢٤-١٢٧

(٤) السيوطي ، المصدر السابق، ص ٢٤-٢٥

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٧

وأردف "وكذلك ضمير الشأن والقصة كقوله تعالى: "قُلْ هُو اللَّه أَحَد" (الإخلاص/١) وقوله: "إنْ هِي إلا حيَاتنا الدنيا "(المؤمنون/٣٧) وعلق على الآيتين فقال: "والسر في ذلك في الموضعين قصد أن يتمكن في ذهن السامع ما يتلو الضمير ... لأنه بالضمير يتهيأ له ويتشوق فيتمكن بعد وروده فضل تمكن"[١].

وألمح إلى أن منه عكس ذلك إذ يوضع الظاهر موضع الضمير فإن كان الظاهر اسم إشارة، ففائدته كمال العناية بتمييزه لتضمنه حكماً بديعاً، وقد يكون لادعاء شهرته[٢]. أما إذا كان غير إشارة فله فوائد أبرزها: زيادة التمكن عند السامع ،وإدخال الخوف والمهابة على قلبه، وكذلك الاستعطاف[٣].

وتابع السيوطي في كل ما سبق القزويني ، وذكر شواهده أنفسها [٤]، لكن الملاحظ أنه زاد عليه بعض التعليقات التي تتحدث عن التأثير النفسي وإثارة مكامن القلب ، وهي ملاحظة تتكرر كثيراً عند السيوطي عند معالجته للشواهد ، فهو يعلي من شأن القيمة للشاهد وما يحققه من أثر في نفس المتلقي ، وكأنه يؤكد أهمية البلاغة القيمية، وتلمس الجانب النفسي فيها.

وأضاف السيوطي من زياداته على التلخيص في هذا المقام أنه قد يُقصد التوصل بالظاهر إلى الوصف كقوله تعالى: "فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي " (الأعراف/١٥٨) بعد قوله: "إنِّي رسولُ اللهِ " ومنها تعظيم الأمر نحو:" أو لم يَروْا كيف يبدئ الله الخلقَ ثُمَّ يعيده، إنَّ ذلك على الله يسير ، قل سيروا في الأرضِ فانظروا كيف بدأ الخلقَ" (العنكبوت/١٩-٢٠).

وأضاف أن وضع الظاهر موضع المضمر إذا كان بمعنى الأول لا بلفظه أحسن؛ كقوله تعالى:" الحمدُ لله الذي خلقَ السَماواتِ والأرضَ " (الأنعام /١) ثم قال تعالى:" ثُمَّ الذين كَفَروا بربهم يَعْدِلُون " (الأنعام/١).

وأشار إلى رأي السكاكي الذي يقول إن نقل الكلام من الحكاية إلى الغيبة ليس مختصاً بالمسند إليه ، ولا بهذا القدر، بل كل من الغيبة والخطاب والتكلم ينقل إلى آخر في المسند إليه وغيره [٥]. وعلق السيوطي عليه قائلاً: " إن الالتفات التعبير عن معنى

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان ، ص ٢٧

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧

(٣) المصدر نفسه ، ص٢٧.

(٤) القزويني ، شرح التلخيص ، ص ٤٧.

(٥) السكاكي ، المفتاح ، ص ٢٠٠.

بواحد من الثلاثة بعد التعبير عنه بغيره منها"[١]. ورأى أن هذا أخص من قول السكاكي لأن قولك: الخليفة أمير المؤمنين يأمرك بكذا ، التفات على رأيه ، لأنه منقول عن أنا لا على الثاني لعدم تقدم خلافه[٢].

وانتقل بعد ذلك مستطرداً للحديث عن الالتفات إذ تناول أقسام الالتفات الستة وهي :" من المتكلم إلى الخطاب نحو قوله تعالى: "ومَالِيَ لا أعبُدُ الذي فَطَرني وإليه تُرجَعُون" (يس/٢٢): والأصل وإليه أرجع ، ومن التكلم إلى الغيبة نحو :" إنّا أعْطَيْنَاكَ الكَوثَر ، فَصَلِّ لِربِّكَ وَانْحَر " (الكوثر/١-٢) ومن الخطاب إلى التكلم نحو قول علقمة بن عبدة:

طَحا بكَ قَلبٌ في الحسانِ طَروبُ بُعيدَ الشّبابِ عَصرَ حانَ مَشيبُ
تَكلِّفُني ليلى وقدْ شَطَّ وَلْيُهَا وعَادَتْ عوادٍ بَينَنا وخُطُوبُ

ومن الخطاب إلى الغيبة نحو قوله تعالى: "حتى إذا كُنْتُمْ في الفلكِ وَجَرَيْنَ بِهِم" (يونس/٢٢) ومن الغيبة إلى الخطاب نحو قوله تعالى: "مالك يوم الدين، إيَّاك نعبد" (الفاتحة/٤) ومن الغيبة إلى التكلم نحو "والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه.." (فاطر/٩).

وتناول السيوطي فائدة الالتفات بأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن وأشهى للقلب وألذ للسمع وأكثر صفاءً لما فيه من التنقل لما جبلت عليه النفوس من الضجر ، وربما اختص كل موقع منه بلطائف ونكت خاصة[٣].

والسيوطي في كل ما سبق تابع للقزويني[٤] وأضاف السيوطي زيادة هي أن الالتفات لا يكون في جملة واحدة ، بل في جملتين ، وألمح إلى أن الزمخشري و السبكي قد صرحا بذلك[٥].

وأردف السيوطي أن من خلاف مقتضى الظاهر مجاوبة المخاطب بغير ما يترقب

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٢٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨

(٤) القزويني ، التلخيص ، ص ٢٠

(٥) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٢٩

- وأشار إلى أن عبد القاهر سماه المغالطة وسماه السكاكي الأسلوب الحكيم - وذلك بحمل كلامه على خلاف قصده تنبيهاً على أنه أولى بالقصد[١]، ومثَّل لذلك بقول القبعثري - وقد قال له الحجاج متوعداً :لأحملنك على الأدهم -: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب.

ووقف السيوطي طويلاً عند الشاهد :" يَسْألونَك عن الأهلَّة، قل هِيَ مواقيتُ للناسِ والحج" (البقرة/١٨٩) الذي مثل به لنكتة، إجابة السائل بغير ما يتطلب تنبيهاً على أنه الأولى والأهم، ويتمحور وقوفه حول نفي تهمة الجهل عن الصحابة بسؤالهم عن الأهلة. وهو بذلك مدفوع بصدق عقيدته وحسه الإسلامي.

وأضاف السيوطي إن من خلاف مقتضى الظاهر وضع الماضي موضع المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوعه كقوله تعالى: "ويومَ يُنفخُ في الصورِ، فَفزِعَ مَنْ في السَّماواتِ ومن في الأرضِ" (النمل/٨٧)، وإما للإشراف أي مشارفة وقوعه أي مقاربته نحو قوله تعالى: " ولْيخْشَ الذين لو تَركوا من خلفهم ذريةً ضِعافاً" (النساء/٩) أي شارفوا أن يتركوا[٢].

وذكر السيوطي أن هذا لم يذكره صاحب التلخيص وإنما ذكره الطيبي ، وذكر أنه ليس منه التعبير بلفظ اسم الفاعل والمفعول عن المضارع نحو: "وإنَّ الدِّين لواقع" (الذاريات/٦) و "ذلك يومٌ مجموعٌ له الناس" (هود/١٠٣) خلافاً لصاحب التلخيص لأنهما صالحان للمستقبل[٣].

وقد ذكر القزويني أن من التعبير عن المستقبل بغير لفظه وخروج الكلمة عن مدلولها الأصلي كاستعمال اسم الفاعل واسم المفعول في مقام الفعل ودلالته على الزمن[٤].

وواضح أن السيوطي يأخذ بعين الاعتبار دلالات الألفاظ في مناقشة الأحكام البلاغية وضبطها، فاستثنى من القاعدة اسم الفاعل واسم المفعول لما يحملان من دلالة على المستقبل، في حين شكل الخروج عن استعمال صيغة المضارع في التعبير عن

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص٢٩ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠

(٤) القزويني، التلخيص، ص٥١

المستقبل كافياً لعدها من أحكام الخروج عن مقتضى الظاهر.

وجعل السيوطي القلب من مباحث الخروج عن مقتضى الظاهر وأشار إلى اختلاف البلاغيين في قبوله، فالسكاكي قبله مطلقاً، وقال إنه يورث الكلام ملاحة، ورده غيره مطلقاً لأنه عكس المطلوب(١). واختار السيوطي رأي القزويني الذي يشترط تضمن القلب معنىً لطيفاً مثل قوله تعالى: "ويومِ يُعرضُ الذينَ كَفَرُوا على النَّارِ" (الأحقاف/٢٠).

وأضاف السيوطي من زيادته مسألتين لهما شبه بالالتفات وليستا منه :

أولاهما : التعبير بواحد من المفرد والمثنى والمجموع عن آخر منها وهو من أنواع المجاز بخلاف الالتفات .

ومنه قوله تعالى: "والملائكةُ بعدَ ذلكَ ظَهِير" (التحريم/٤).

ومثال المثنى عن المفرد: قوله تعالى "ألقِياه في جَهَنَّم" (ق/٢٤) أي ألْقِ.

ومثال المثنى عن الجمع: قوله تعالى: "ثم ارجعِ البَصَرَ كَرَّتين" (الملك/٤) إذ المراد التكثير لا مرتان.

ومثال الجمع عن المفرد قوله تعالى: " قال ربِ ارجعُون " (المؤمنون/٩٩) أي ارجعني.

ومثال الجمع عن المثنى قوله تعالى: " فقد صَغَت قُلُوبُكما" (التحريم/٤).

والمسالة الثانية : الانتقال من خطاب واحد من الثلاثة إلى آخر منها(٢).

والملاحظ ان السيوطي في زيادته هذه إنما يتمثل رأي أبي عبيدة في المجاز(٣). كما يأخذ عن القزويني ، إلا أنه يضيف شواهد أخرى من عنده ويعلق عليهما(٤).

ثم تناول السيوطي في موضوع المسند تحت عنوان الأحوال العارضة للمسند ، متحدثاً فيه عن أمور أولها: حذفه ، وذكر النكت التي يحذف لأجلها المسند من اجتناب للعبث وضيق مقام والاختصار ، ونقل ما قاله الشيخ سعد الدين التفتازاني(٥):" بأن في

---

(١) القزويني ،التلخيص، ص ٥٢.

(٢) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص ٣٦

(٣) أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، ج١، ص٩-١٠ .

(٤) القزويني ، المصدر السابق ، ص ٤٧-٥٣.

(٥) التفتازاني ، مختصر السعد ، ١٢/٢ .

الحذف تكثير الفائدة، بإمكان حمل الكلام على كل من المعنيين بخلاف ما لو ذكر، فإنـــه يكون نصاً في أحدهما" كما في قوله تعالى: " فَصَبرٌ جَمِيلٌ " (يوسف/١٨) التي تحتمل أن تكون من حذف المسند وأن تكون من حذف المسند إليه ، ويرى السيوطي أن الحذف هنا لضيق المقام والضجر[١] .

وذكر أن شرط الحذف قرينة دالة عليه وهي إما سؤال مذكور أو سؤال مقدر للعلم به [٢]. واستمر السيوطي في عرض أحوال المسند، فذكر أن المسند يذكر للنكت التي يذكر لهـــا المسند إليه، ثم تناول إفراده، وذلك لكونه غير سببي مع عدم إفادة تقوية الحكم نحو: زيد قائم، فقائم ليس سبباً ولا يفيد تقوية الحكم كـــ -قام- بل يقرب منه، فإذا أردنا التقويـــة أو كان سبباً جئنا به جملة. ووضح السببي بأنه :ما جرى على غير مَن هو له ،بأن يكـــون إثبات المسند للمسند إليه لمتعلقه لا لنفسه نحو: زيد أبوه منطلق وهند عبدها قائم[٣]. وهذا التفسير لا نجده في التلخيص[٤].

وذكر ان المفرد قد يكون فعلاً ، وقد يكون اسماً والأول يتقيد بأحد الأزمنة الثلاثة، والثاني بقيد أمس أو الآن أو غداً ، وتقييد المسند يزيد الحكم غرابة وفائدة [٥].

وركز السيوطي في تناوله لتقييد المسند بالشرط على المعاني التي تخـــرج إليهـــا الأدوات ، أشار إلى أن "إنْ"و "إذا" للشرط في الاستقبال سواء كان مدخولهما مضارعـــاً أو ماضي اللفظ ، وألمح إلى أنّ "إنْ" الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط وفي " إذا " الجزم ولهذا تدخل "إنْ" على النادر والمحال دون "إذا" وغلب في "إذا" لفظ الماضي لدلالته على الوقوع قطعاً [٦]. واستشهد لذلك بقوله تعالى :" فإذا جاءتْهم الحَسنةُ قالوا لنا هَذه وإنْ تُصبْهمْ سيئةٌ يطَّيَّروا بموسى ومَنْ معَه" (سورة الأعراف/ آية ١٣١) ، وعلق على الآيـــة قائلاً :" أتى في الحسنة بـــ"إذا" ولفظ الماضي لأن وقوعها مجزوم بـــه لأن المـــراد بهـــا النعم، ونعم الله لا تنفك عن الخلق ، وفي السيئة بإن والمضارع إشارة إلى ندورها وهي ما يسوء الإنسان، ولهذا نُكِّرَت إشارة إلى التقليل بخلاف الحسنة [٧].

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٣١

(٢) المصدر نفسه ص٣١.

(٣) المصدر نفسه ، ص٣٢

(٤) القزويني ، شرح التلخيص ، ص ٥٧.

(٥) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٣٣

(٦) المصدر نفسه ص٣٣

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٣

وتناول التغليب وأشار إلى ما قاله القزويني حوله من أنه باب واسع يجري في فنون كثيرة [١]. كقولهم العمران لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما غلب الأخف.

وكقوله تعالى :" وكانت من القانتين " (سورة التحريم/ آية ١٢)غلب المذكر على المؤنث .وألمح السيوطي إلى شرط ابن الحاجب في التغليب بأن يغلب الأدنى على الأعلى، وأن الطيبي فشرط تغليب الأعلى ، أما السيوطي فيرى أن التغليب يكون للأفضل وللأخف وللتذكير وغير ذلك [٢].

وعاد السيوطي للتحدث عن أحكام "إذا" و"إن" واختصاصهما بالجملة الفعلية وتناول إثرها أحكام "لو" ومعانيها مسهباً في تعقب آراء العلماء من نحاة وبلاغيين وهو بهذا يؤكد تنقل علم المعاني بين مباحث النحو والبلاغة ، وتداخل هذين العلمين ، إذ يتنقل السيوطي بين هذه الآراء بمهارة ، ويربط بينها باتفاق فيوظف المعنى البلاغي لخدمة الرأي النحوي وترجيحه.

وختم السيوطي مبحث تقييد المسند بتقييده بحرف النفي مشيراً الى أن القزويني لم يذكره في حين تعرض له الكمال بن الزملكاني في "التبيان"، وذكر أن أحرف النفي ستة "ما" و"إن" و"لا" وهي تنفي الاسم والفعل و"لن" و"لم" و"لما" وهي تختص بالفعل ، فالأولان لنفي الحال كـ"ليس"، و"لا" و"لن" لنفي الاستقبال و"لما" لنفي الماضي ونفي "إن" أبلغ من نفي "ما" [٣].

واللافت أن السيوطي يستغل هذا المبحث ليحمل على رأي الزمخشري ويتهمه بالفساد ، وذلك أن الزمخشري رأى في "لن" تأبيد النفي كقوله تعالى: "لن يَخْلُقوا ذباباً" (سورة الحج/ آية ٧٣). وبنى عليه رأيه الاعتزالي في رؤية الله من "لن تراني" ويرد السيوطي بأن تأبيد النفي هنا من سياق الآيات ، وليس من "لن"[٤]. وهكذا نلاحظ كيف يتدخل الفكر العقدي لدى السيوطي ليدفع رأياً بلاغياً، فالسيوطي السنيّ يرفض توظيف الزمخشري للبلاغة لخدمة مذهبه الاعتزالي ورجح عليه الرأي الذي يؤيد مذهبه.

---

(١) القزويني ، شرح التلخيص ، ص ٥٩

(٢) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٣٤

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٧

واستمر السيوطي في حديثه عن أحوال المسند ، فبحث تنكيره وتخصيصه وتعريفه ، وذكر أن تنكيره يكون لإرادة عدم الحصر وعدم العهد الدال عليهما التعريف وللتفخيم، أما التخصيص فلكون الفائدة أتم ، أما التعريف فيكون لإفادة المخاطب حكماً أو لازم حكم على شيء معلوم له - بإحدى طرق التعريف - بآخر مثله ، أي إذا كان السامع يعلم للمحكوم عليه إحدى صفتين وأردت أن تفيده الأخرى فاجعل المعلوم له مبتدأ وغيره خبراً[١].

وذكر أن المعرف بالألف واللام قد يفيد قصر الجنس على شيء مسنداً كان أو مسنداً إليه تحقيقاً، نحو: زيد الأمير إذا لم يكن أمير سواه، أو مبالغة لكماله فيه نحو: عمرو الشجاع ، وقد لا يفيد ذلك[٢].

وأشار إلى قول الرازي في نحو : عمرو المنطلق ، والمنطلق عمرو " أن الاسم متعين للابتدائية تقدم أو تأخر لدلالته على الذات، والصفة متعينة للخبرية بدلالتها على أمر نسبي[٣]. وعقب السيوطي على ذلك بأنه رأي مردود ، وذلك بأن المنطلق لا يجعل مبتدأ إلا بمعنى الشخص الذي له الانطلاق، وهو بهذا المعنى لا يكون خبراً ، لأنه دال على الذات وعمرو لا يجعل خبرا إلا بمعنى صاحب اسم عمرو، وبهذا المعنى لا يحسن مبتدأ لدلالته على أمر نسبي[٤].

وهو هنا تابع القزويني[٥] في تناوله لهذه المسألة، لكنه تميز بوضوح عبارته نوعاً ما وتبسيط شرحها .

وتحدث عن كون المسند جملة ، وذلك لتقوي الحكم بنفس التركيب ، وتكون الجملة الاسمية للدوام والثبوت، والفعلية للتجدد والحدوث ، والشرطية للاعتبارات المختلفة الحاصلة من أداة الشرط[٦].

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص ٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٣) الرازي ، نهاية الإيجاز ، ص ٧٦-٧٩

(٤) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٢٨

(٥) القزويني ، شرح التلخيص ، ص٦٣

(٦) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٣٨

وقد تابع السيوطي القزويني، وذكر أن التأخير هو الأصل ويقدم إما لتخصيصه بالمسند إليه كقوله تعالى: "لا فيها غول" (الصافات/٤٧)، أو للإفادة أنه خبر من أول وهلة لا نعت أو للتشوق إلى المسند إليه أو للتفاؤل[١].

وختم السيوطي حديثه بإشارة إلى حذف الفاعل وبناء المسند إذاً كان فعلاً للمفعول، وذلك لنكت أهمها : العلم به ، ودلالة السياق عليه ....

كما ذكر أن كل ما ذكر في باب المسند إليه والمسند، لا يختص بهما بل يأتي في غيرهما.

وانتقل بعد ذلك للحديث عن أحوال متعلقات الفعل وما يعمل عمله ، فذكر متابعاً القزويني أن الفعل مع المفعول ، كالفعل مع الفاعل من أن الغرض من كل منهما إفادة التلبس به لإفادة وجوده فقط[٢].

وأضاف السيوطي أن عمل الرفع في الفاعل ليفيد وقوعه منه والنصب في المفعول ليفيد وقوعه عليه ، وأن المتكلم يريد أحيانا الإخبار عن الفعل من غير تلبس بفاعل ولا مفعول فيقول: وقع ضرب ... وتارة يريد فاعله فيأتي بالفعل الصناعي، ثم إن كان متعدياً ، فتارة يقصد الإخبار بالحدث في المفعول دون الفاعل ، فيبنى للمفعول وتارة يقصد الإخبار بالفاعل ولا يذكر مفعوله[٣].

والملاحظ أن السيوطي أضاف هذه الزيادة على عبارة القزويني لكنها لم تفد شرحاً بقدر ما فيها من غموض وخلط للأمور النحوية والصرفية التي يقحمها في تضاعيف بحثه وشرحه .

وتابع السيوطي شرحه لمتعلقات الفعل معتمداً على أسس القزويني وتقسيمات البلاغيين الآخرين ، فذكر الأضراب التي يأتي عليها حذف المفعول له وإثبات الفعل للفاعل ، كما ذكر الأغراض التي يحذف لأجلها المفعول له كدفع ابتدار الذهن إلى غير المراد ، وكالتأدب مع المخاطب والاختصار مع قيام قرينة.

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٣٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ ، القزويني ، شرح التلخيص ، ص ٦٦.

(٣) السيوطي ، المصدر نفسه ، ص ٤٠

وانتقل السيوطي بعد ذلك للحديث عن تقديم المفعول على الفعل ، فذكر أنه يكون لدرء الخطأ في التعيين بأن يكون المخاطب يظن وقوعه على مفعول معين ، وهو واقع على غيره كقولك زيداً ضربتُ.

ويكون للتخصيص كقوله تعالى :" إياك نعبد وإياك نستعين " (الفاتحة/٤)، وفي مثل "زيداً عرفته"، إذا لم تقدر المفسر قبل الاسم ، وهو هنا يرفض اعتبار الاشتغال من هذا الباب[١] . وذلك لتقدير المفسر في حين اعتبره القزويني منه وجعل النكتة فيه التأكيد[٢].

وأشار السيوطي إلى أن ابن الحاجب أبى أن يكون التقديم يفيد الاختصاص، واستدل بقوله تعالى :" فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لهُ الدِّينَ" (الزمر/٢) و" بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ" (الزمر/٦٦)، وتابعه أبو حيان وكذا صاحب الفلك الدائر.

ورأى السيوطي "أن الذي أوقعهم في ذلك ظن أن الاختصاص هو الحصر، وفي ذلك بحث" .والذي رجحه الشيخ السبكي تغايرهما، فقال: الحصر نفي غير المذكور وإثبات المذكور، والاختصاص قصر الخاص من جهة خصوصه، فيقدم للاهتمام به من غير تعرض لنفي غيره[٣].

وختم السيوطي حديثه بإشارته إلى جواز تقديم بعض معمولات الفعل على بعض لأن أصل ذلك المعمول التقديم على غيره، ولا مقتضى للعدول عنه[٤].

وتناول السيوطي بعد ذلك الباب الخامس من أبواب علم المعاني وخصصه للحديث عن القصر فَعَرَّفَهُ بأنه تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، وذكر أنه ضربان حقيقي ومجازي وكل منهما يأتي على صورتين :

قصر الموصوف على الصفة وقصر الصفة على الموصوف[٥].

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٤١

(٢) القزويني ، شرح التلخيص ، ص ٧١

(٣) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٤٢

(٤) السيوطي، المصدر نفسه، ص ٤٢ .

(٥) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٤٣

واستمر السيوطي بتفصيله لما أوجزه فوقف عند تقسيم القصر إلى قصر إفراد وقصر قلب وقصر تعيين ،وذكر حدود كل منها، فالإفراد لقطع الشركة التي يعتقدها المخاطب والقلب لقلب الأمر عند المتكلم، أما التعيين فلتعيين ما هو غير معين عند المخاطب وكان مثاله في الحالات الثلاث: ما زيد إلا قائم وما زيد إلا كاتب[١].

ويميز السيوطي في حديثه هذا عبارته المتسلسلة نوعاً ما في سبيل توضيح ما يكتب لقرائه وانظر إليه يقول: "والمخاطب بالأول - وهو التخصيص بشيء دون شيء. من ضربي قصر الموصوف وقصر الصفة ، من يعتقد الشركة ، أي شركة صيغتين في موصوف واحد في قصر الموصوف وشركة موصوفين في صفة واحدة في قصر الصفة، فالمخاطب بقولنا: ما زيد إلا كاتب. من يعتقد إتِّصافه بالشعر والكتابة"[٢] وهو أسلوب يغلب على كتابة السيوطي ، وذلك بغرض تقريب المفاهيم وتوضيحها.

وتابع السيوطي بحثه فتحدث عن شروط قصر الموصوف على الصفة ومنها إفراداً تنافي الوصفين ليصح اعتقاد المخاطب اجتماعهما في الموصوف وقلباً أن يوجد تنافي الوصفين والتعيين أعم من أن يكون الوصفان فيه متنافيين أو لا فكل ما يصلح مثالاً لقصر الإفراد أو القلب يصلح لقصر التعيين من غير عكس[٣].

ثم ذكر طرق القصر ومنها العطف بلا وبل ومنها "النفي والاستثناء بإلا" ومنها "إنما" ومنها تقديم ما حقه التأخير ، وألمح إلى طرق مختلف فيها من مثل "أنما" بالفتح ونقل قول الزمخشري، والبيضاوي في قوله تعالى :"قل إنَّما يوحى إليَ أنَّما إلهُكم إله واحد" (الأنبياء/١٠٨) "أنَّما" لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشيء على حكم[٤].

وأشار إلى أن طرق القصر تختلف من وجوه من أبرزها أن الدلالة على الحصر فيها وضعية ما عدا في التقديم فهي تفهم من السياق، كما أن الأصل في العطف ذكر المثبت والمنفي، فلا يترك إلا لكراهة الإطناب، وأما باقي الطرق فالأصل فيها النص على المثبت، وكذلك أن المنفي "بلا" لا يجامع "النفي والاستثناء" في حين "إنما والتقديم" يجامعها النفي فنقول: إنما أنا تميمي لا قيسي[٥].

والملاحظ أن السيوطي لا يخرج عما جاء القزويني من قضايا وأمثلة، بل إن

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص ٤٣-٤٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٣

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٤

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٥

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٦

عبارته تقصر أحياناً عن تبليغ المراد بالمقارنة مع ما يقوله القزويني، لنأخذ مثلاً الحالة الأولى من اختلاف طرق القصر، فالقزويني يقول: الوجه الأول يقوم على أن دلالة التقديم تعرف عن طريق الفحوى ومفهوم الكلام، أما دلالة الطرق الأخرى فتعرف بالوضع وبوسائل محسوسة[١].

أما السيوطي فيقول: "أحدها أن التقديم يفيد بالفحوى يعني بمفهوم الكلام بمعنى أنه إذا تأمل الذوق السليم فيه فهم القصر، وإن لم يعرف اصطلاح البلغاء في ذلك، والبواقي تفيده بالوضع لأن الواضع وضعها لمعان تفيد الحصر"[٢].

وواضح في عبارة السيوطي ميله إلى تفصيل عبارته والإتيان بالجمل المختلفة ذوات المعنى الواحد بقصد تسهيل الفهم ، مما يورث عباراته أحياناً شيئاً من الركاكة والإبهام .

وختم السيوطي بحثه في القصر بذكر أن القصر يكون بين الفعل والفاعل وغيرهما، كما كان بين المبتدأ أو الخبر، وألمح إلى جواز تأخير المقصور عليه مع كلمة الاستثناء عن المقصور فاعلاً كان أم مفعولاً أم غيرهما.

وذكر أنه لا يجوز في القصر بأنما تقديم المقصور عليه على غيره أصلاً لقصد الإلباس[٣].

وفي حديثه عن الإنشاء ذكر أنه ينقسم إلى طلب وغيره واختار قول الشيخ بهاء الدين السبكي بأن الأحسن أن يقال: طلبي، وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب لامتناع طلب الحاصل [٤].

ثم شرع بذكر أنواعه ومن أبرزها التمني وهو طلب حصول شيء على سبيل المحبة واللفظ الموضوع له "ليت" وألمح إلى أنه لا يشترط إمكان التمني بخلاف الترجي، وذكر أنه قد يتمنى بـ "هل" حيث يعلم فقده ، وبـ "لو" إذا نصب جوابها [٥].

---

(١) القزويني ، شرح التلخيص ، ص ٧٧

(٢) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٤٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٧

(٤) المصدر نفسه ، ص٤٨

(٥) السيوطي، المصدر نفسه .ص٤٩

ومن أنواعه كذلك الاستفهام الذي هو طلب الفهم بألفاظ مخصوصة وهي : الهمزة وهل وما ومن وأي وكم وكيف وأين وأنى ومتى وأيان [(١)].

وذكر السيوطي أن الاستفهام قد يكون لطلب التصور وقد يكون لطلب التصديق فقط ، وقد يكون لطلب أيهما كان ، ورأى ان هذا الحكم يختص بالهمزة لكونها الأصل وباقي الأدوات نائبة عنها [(٢)].

وحدد السيوطي طلب التصور بأنه يكون عند التردد في تعيين أحد شيئين أحاط العلم بأحدهما لا بعينه ، والتصديق يكون عن نسبة تردد الذهن في ثبوتها ونفيها ، وألمح إلي أن الأول - التصور - يصلح أن يأتي بعده أم المتصلة دون المنقطعة والثاني عكسه[(٣)].

والملاحظ أن السيوطي هنا قد أخذ برأي ابن مالك وبهاء الدين السبكي ، في توضيحه لحدود الاستفهام وهو بعد ذلك لا يخرج كثيراً عمّا جاء به القزويني ، إذ يدور في حلقته ويستشهد بأمثلته .

وأكد السيوطي في تناوله لـ "هل" أنها لطلب التصديق فقط وأنه يمتنع العطف بعدها بأم المتصلة ، ليخوض بعدها في مسألة نحوية صرفة وهي جواز التقديم في جملة هل ، ذاكراً آراء العلماء في هذه المسألة كابن مالك والزمخشري وسيبويه [(٤)]، وهو لا يتجاوز هنا دور المردد لآراء النحاة دون ترجيح أو تعليل .

وذكر السيوطي أن لـ "هل" قسمين : بسيطة يطلب بها مطلق وجود الشيء كقولنا: هل الحركة موجودة ؟.ومركبة ويطلب بها وجود شيء لشيء كقولنا : هل الحركة دائمة ؟.

ثم أشار إلى أن بقية ألفاظ الاستفهام يطلب بها التصور فقط وتختلف من جهة أن المطلوب بكل منها تصور شيء آخر [(٥)]. و "ما" يطلب بها شرح الاسم وبيان مدلوله أو يطلب بها ماهية المسمى وحقيقته، أما "من" فيطلب بها تعيين الشخص : ويسأل بـ "أي"

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان ص٤٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٩

(٣) المصدر نفسه ، ص٤٩

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٠

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٢

عما يميز أحد المشاركين في أمر يعممها وبــ"كم" عن العدد ،وبــ"كيــف" عــن الحــال، وبــ"أين" عن المكان ،وبــ"متى" عن الزمان ،وبــ"أيان" عن الزمان المســتقبل ،و"أنــى" تستعمل تارة بمعنى كيف ولا يليها إلا فعل [١].

ثم ذكر أن كلمات الاستفهام تخرج عن معانيها وتستعمل مجازاً في غير الاستفهام فــ"كم" تكون للاستبطاء في مثل: كم أدعوك، لمن أكثرت دعاءه، وألمح إلى خطأ الطيبي بحصر الاستبطاء بــ "كم" [٢].

ويكون الاستفهام للتعجب في نحو قوله تعالى على لسان سليمان: "مــالي لا أرى الهدهد" (النمل/٢٠) ومنه الوعيد والتقرير والإنكار والتهويل والاستبعاد ، وأشار إلــى أن العلامة شمس الدين بن الصائغ قد ألف كتاباً في أقسام الاستفهام سماه " روض الأفهام في أقسام الاستفهام" . ذكر فيه ثمانية وعشرين معنى ، وذكر السيوطي أنه عزم على تلخيصه وتهذيبه لأن فيه شيئاً من الخلط [٣].

وأنهى السيوطي بحثه في الاستفهام بقول نقله عن بهاء الدين السبكي قرر فيه بقاء معنى الاستفهام مع الأغراض التي يخرج إليها ، خروجاً من اشــكالات الخــلاف حــول بعض الشواهد بكونها استفهاماً حقيقياً أم لغرض بلاغي [٤].

وأبقى السيوطي في هذا صفحة تأليفه سجالاً لآراء العلماء السابقين مــع إفســاحه مجالاً أوسع لرأي البهاء السبكي في إشارة منه لاختياره لرأيه مع أنه لا يصرح بذلك.

وفي بحث الأمر بدأ بتعريفه بأنه "طلب الفعل إيجاباً أو ندبــاً اســتعلاءً أي علــى طريق العلو، وعد الآمر نفسه عالياً سواءاً كان كذلك في نفس الآمر أم لا لتبادر الفهم عند سماع صيغته إلى ذلك ، والتبادر علامة الحقيقة[٥] .

وذكر أن علماء الأصول يشترطون علواً لا استعلاءً وتبعهــم بذلــك الــرازي ، مستدلين بقوله تعالى حكاية عن فرعون :"فماذا تأمرون" (الشعراء/٣٥) ورد بأن معنــى الأمر هنا المشورة في الفعل [٦].

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان، ص ٥٣

(٢) ا المصدر نفسه ، ص ٥٣.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٤.

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٥

(٥) المصدر نفسه ، ص٥٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٥٥ .

وشرع بعد ذلك بذكر صيغ الأمر كالفعل المقترن باللام وفعل الأمر واسم الفعل ثم عدد بعض المعاني التي يخرج إليها الأمر كالدعاء ، إذا كان من السافل للعالي ، والالتماس من المساوي والإهانة والتسخير والتخيير والتمييز والتسوية والامتنان والتعجب والاحتقار والأدب [١].

والسيوطي في كل ذلك متابع القزويني إلا في الإشارة إلى رأي علماء الأصول وفي المعاني الثلاثة الأخيرة التي يخرج إليها الأمر . أما النهي فقد عرفه بطلب الكف عن الفعل تحريماً أو كراهة على وجه الاستعلاء ، وحرفه "لا" الجازمة ، وذكر أنه قد يخرج إلى معان كثيرة كالتهديد والتقليل والامتنان والدعاء والإرشاد [٢].

وأشار السيوطي بعد ذلك الى مسألة نحوية وهي جزم المضارع بعد التمني والاستفهام والأمر والنهي بتقدير شرط بعدها . كقولك: ليت لي مالاً أنفقه ، أي: إن أرزقه أنفقه .

وتحدث السيوطي عن النوع الخامس من الإنشاء وهو النداء وعرفه بـ "طلب" الإقبال بحرف ناب مناب "أدعو" لفظاً أو تقديراً ، وذكر أنه قد تستعمل صيغته في غير معناه فتجيء للإغراء والاختصاص والاستغاثة وقصد التعظيم .

وألمح إلى أن حرف النداء "يا" ينادى به البعيد ، لكنه قد يخرج عن ذلك لنكت منها كون المدعو بليداً ولقصد التعظيم [٣].

ووقف السيوطي عند نوع سادس للإنشاء لم يقف عليه صاحب التلخيص وهو الترجي وحرفه "لعل" وذكر أنه قد يخرج عن معناه فيرد لتوقع المحذور ويسمى إشفاقا وللتعليل وللاستفهام وللشك .

وقد نقل هذا كله عن مجموعة من العلماء أبرزهم الشيخ البهاء السبكي والسكاكي والأخفش والفراء والتنوخي .

وختم بحثه للإنشاء بالإشارة إلى "أنه قد تقع صيغة الخبر ويراد بها الإنشاء ، وذلك إما تأدباً للتحرز عن صورة الأمر ، أو تفاؤلاً أو إظهاراً للحرص في وقوعه [٤].

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص ٥٥-٥٦

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٨

وكذلك قد يقع لفظ الطلب مراداً به الخبر لنكت تدرك من سياقاتها كقوله تعالى "قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم" (الأعراف/ ٢٩) ولم يقل وإقامة وجوهكم تأكيداً لمكان العناية بالصلاة [١].

وإشارته الأخيرة مما زاده على التلخيص نقلاً عن الطيبي في كتابه التبيان ، مما يؤكد نهج السيوطي في إكمال نقص القزويني من خلال قراءاته ، ومن ثَم السعي إلى إخراج المبحث البلاغي ممثلاً من جميع جوانبه .

وقرر السيوطي في باب الوصل والفصل أن هذا الباب من أعظم أبواب علم المعاني خطراً وأدقها مسلكاً ، مؤكداً قوله بقصر أبي علي الفارسي البلاغة على معرفة الوصل والفصل .

وعرف الوصل بـ"عطف الجمل" والفصل بترك التعاطف ، ووضح ذلك بقوله : "إذا أتت جملة بعد جملة وكان للأولى محل من الإعراب وقصد تشريك الثانية لها في حكم الإعراب عطفت عليها، كما يعطف المفرد ...، وشرط كون عطف الثانية على الأولى مقبولاً في فن البلاغة أن يكون بينهما تناسب بجهة جامعة نحو: زيد يكتب ويشعر ويعطي ويمنع[٢]، وإن فقد قصد التشريك ترك العطف نحو قوله تعالى: "وإذا خلو إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، إنما نحن مستهزئون، اللهُ يستهزئُ بهم " (البقرة/١٤) لم يعطف "الله يستهزئ بهم" على "إنا معكم" لأنه ليس من قولهم، وإن لم يكن لها محل فإن قصد ربط الثانية بها على معنى حرف عاطف غير " الواو " كالتعقيب المستفاد من "الفاء" والتراخي المستفاد من "ثم" وجب عطفها نحو : "دخل زيد فخرج أو ثم خرج عمرو" [٣] ، ثم ذكر أن الوصل والفصل ستة أحوال : كمال الانقطاع بدون إيهام خلاف المقصود ، وكمال الاتصال ،وشبه كمال الانقطاع ،وشبه كمال الاتصال، وكمال الانقطاع في الإيهام، وأخيراً التوسط بين الكمالين [٤].

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص٥٨.

(٢) المصدر نفسه ، ص٥٨.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٨-٥٩

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٩

وشرع السيوطي بعد ذلك بتوضيح كل قسم من الأقسام الستة بعبارات تداخلت فيها المفاهيم النحوية مع المفاهيم البلاغية وبقوالب لا تخلو من الجمود والتحديد وهو المنهج الذي ما فتئ السيوطي يعلن رفضه له والتزامه بأدبية البلاغة ، وهو بذلك كله يتبع القزويني في بحثه للمسألة بالتزام شبه كامل بالشواهد والتحليل .

وانسحب هذا على بحثه للجامع بين الجملتين فانظره يقول: "الجامع بين الشيئين عقلي أو وهمي أو خيالي، فالعقلي علاقة تجمع بين الشيئين في القوة المفكرة بأن يكون بينهما اتحاد في المقصود، والوهمي بأن يكون بين تصورهما شبه تماثل، أو يكون بين تصورهما تضاد أو شبه تضاد، والخيال بأن يكون بين تصورهما تقارن في الخيال سابق على العطف لأسباب مؤدية إلى ذلك، فلذلك اختلفت الصور الثابتة في الخيالات ترتيباً ووضوحاً" (١) .

ويختم السيوطي حديثه في الوصل والفصل بمناقشة جملة الحال وعلاقتهما بما سبقها وصلاً وفصلاً، وهو يغرق في تداول الآراء النحوية حول جملة الحال ودخول الواو عليها وجوباً وجوازاً، وظني أنه يمكن الاستغناء عن هذه الإفاضة في مناقشة دقائق نحوية لكن السيوطي في ذلك يسير في الركب السكاكي، ومن بعده القزويني اللذين نهجا هذا النهج وأورثاه من وليهم.

وانتهى البحث في علم المعاني لدى السيوطي عند باب المساواة والإطناب والإيجاز فأشار في مقدمة حديثه إلى أهمية معرفة هذا الباب ونقل عن صاحب سر الفصاحة أنه البلاغة، وذكر نقلاً عن السكاكي أن الإيجاز والإطناب من الأمور النسبية، لذا لا يتيسر الكلام فيها إلا بترك التحقيق والرجوع إلى أمر عرفي وهو متعارف كلام الأوساط الذين ليسوا في مرتبة البلاغة (٢).

ثم تحدث عن حدّ الإيجاز فرآه :أداء المقصود بأقل من عبارة المتعارف والإطناب أداؤه بأكثر منها، أما المساواة فاختار رأي القزويني بأنها تأدية المعنى بلفظ مساوٍ له، والإيجاز ضربان: إيجاز القصر وإيجاز الحذف، ونقل عن الطيبي تقسيمه الإيجاز الخالي

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان ، ص ٦٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٧

من الحذف إلى ثلاثة أقسام : إيجاز قصر وحده بقصر اللفظ على معناه - وعلــق عليـه السيوطي بأن هذا رأي من يدخل المساواة في الإيجاز - والثاني إيجاز التقديـر وهــو أن يقدر معنى زائداً على المنطوق ويسمى بالتضييق والثـالث: الإيجـاز الجـامع، هــو أن يحتوي اللفظ على معان متعددة [١].

أما إيجاز الحذف فنقل قول البهاء السبكي بأنه يكون بترك شيء من ألفاظ التركيب الواحد مع إبقاء غيره بحاله، والمحذوف إما جزء كلمة أو جزء جملة أو أكثر، وشرع بعد ذلك بتفصيل كل جزء من ذلك وإيراد أمثلته [٢].

وذكر أن الإطناب يكون بأمور منها الإيضاح بعد الإبهام لتكثير لذة العلم بـــه، أو لتمكين المعنى في النفس، وألمح إلى أن من الإيضاح بعد الإبهام التوسيع، وهو أن يؤتــى في آخر الكلام بمثنى مفسر باسمين، ثانيهما معطوف على الأول، ونقل عن عبد البـــاقي اليمني أن التوشيع قد يجيء في آخر العجز والصدر، وقد يجيء بدل المثنى لمعطوفيـــن بعدهما معطوفان ،وقد يفسر المثنى بمفرد مضاف. وأشار إلى أنه لم يجد مثل هذا التقسيم إلا عند عبد الباقي ، وأضاف من عنده : أن من التوشيع أن يأتي بمثنيين ومثنيـــن ثـم بأربع مفردات اثنين للأولين واثنين للآخرين كحديث : "تعوذوا بالله من عذابين وفتنتين، عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات" [٣].

والملاحظ أن السيوطي في زيادته لم يخرج عن المضمون العام للتوشيع وما فعله كان مجرد تفصيل لمجمل، وكذا كانت زيادة عبد الباقي ، ومن ثمّ فتسميتها زيادة يكـــون من باب الاستخدام اللغوي ، ويلاحظ كذلك أن السيوطي في بحثه للإطناب تابع القزويني بكل ما قاله وتميز عنه بالإكثار من الأمثلة الشعرية دون تعقيب عليها .

ثم ذكر أن من أسباب الإطناب ذكر الخاص بعد العام " وذلك للتنبيه على فضـــل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات كقوله تعالى: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى" (البقرة/٢٣٨) ومنها عكســه أي ذكر العام بعد الخاص نحو قوله تعالى: "رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتــي مؤمنــاً

---

(١) السيوطي، ، شرح عقود الجمان ، ص ٦٩

(٢) السيوطي، المصدر نفسه ، ص ٧٠، البهاء السبكي، عروس الأفراح، ج٢/١٩٠.

(٣) السيوطي، المصدر نفسه ، ص ٧٢

وللمؤمنين والمؤمنات" (نوح/ ٢٨)، ومنها كذلك التكرير لنكتة كالتأكيد ولزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام أو بقصد الاستيعاب، وكل هـذه النكـت مـن إضافـة السيوطي على ما جاء في التلخيص، وأضاف أنواعاً خاصة من التكريـر، ذكـر منهـا الترديد وعنى به أن يعلق المكرر ثانياً بغير ما يعلق به الأول كقوله تعالى: "اللـه نـور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري" (النور/٣٥) وقع فيها الترديد أربع مرات وجعل منها "التعطف" وهـو مثـل الترديد، إلا أنه يشترط في إعادة اللفظ أن يكون في فقرة أخرى أو مصراع آخر كقوله:

يُساقُ إليهِ المدحُ غيرَ مكررٍ   وسُقْتُ إليهِ المدحَ غيرَ مُذَمَّمِ

ومنها كذلك الترجيع، وذكر أن الطيبي عرفه بأن يكون المعنى منهما بشأنه، فـإذا شرع في نوع من الكلام، نظر إلى ما يتخلص إليه، فإذا تمكن من إيراده كرّ إليه كقولـه تعالى :"ولا تعجبك أموالهم" (سورة التوبة/ آية ٨٥)[١]، ثم عاد إلى ذكر أسباب الإطناب، فأورد الإيغال وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، وكذلك التذييـل وهـو أن يأتي بجملة عقب جملة والثانية تشتمل معنى الأولى للتأكيد، والتكميل، وهو أن يؤتى فـي كلام يوهم خلاف المقصود بما يرافع ذلك الوهم والتتميم، وهو أن يؤتى في كلام لا يوهـم غير المراد بفضلة لنكتة كالمبالغة [٢].

ووقف السيوطي عند اختلافات البلاغيين حول تحديد مصطلحات التكميل والتتميم والتذييل، فأشار إلى أن تسمية هذه الأنواع تسمية اصطلاحية لا مشـاحة فيهـا، وكـان الاختلاف في تحديد المعاني التي تأتي لأجلها وتحديد تعريف دقيق لها حيث تتداخل هـذه المصطلحات وتتشابك فيما تختص به [٣].

وتحدث السيوطي عن الاعتراض فعرفه بأنه الإتيان بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب في أثناء كلام أو كلامين اتصلا معنىً ، لنكته غير دفع الإيهام كالتنزيه والدعاء والاستعطاف وغير ذلك ، وذكر نقلاً عن الطيبي أن وجه حسن الاعتراض حسن الإفـادة مع مجيئه مجيء مالا يترقب [٤].

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ٧٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٤

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤

(٤) الطيبي ، التبيان في البيان ، ص٣١٨ ، السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٧٥

وأشار أخيراً إلى أن الإطناب قد يكون بتكثير الجمل ، كما قـد يوصـف الكلام بالإيجاز والإطناب باعتبار كثرة حروفه وقلتها بالنسبة إلى كلام آخر مساوٍ له في اصـل المعنى [١]!!.

وختم السيوطي بحثه في علم المعاني بإشارة إلى أنه قد أورد جماعة من البلاغيين ومنهم الطيبي بعض مباحث علم المعاني في علم البديع من ذلك: الالتفات والخطاب العام والتغليب والأسلوب الحكيم والإيضاح بعد الإيهام وغيرها .

ويمكن القول بعد هذه الاستفاضة في طرح موضوعات المعاني عند السيوطي إنه قد قدم لنا مادة بحثه، وقد ضمنها آراء الكثير من العلماء الذين سبقوه، وكان من أهمهـم: الجرجاني والرازي والسكاكي والطيبي والسبكي وغيرهم مـن العلمـاء الذيـن تتنـوع اختصاصاتهم بين الدراسات القرآنية والقضايا البلاغية تأليفاً وشرحاً .

و كان حريصاً على الأمانة العلمية ، إذ كان يرد نقولاته إلى أصحابهـا بدقـة ، وذلك بالنص على اسم الذي أخذ عنه أو ذكر المصدر .

وأشير إلى أن زيادات السيوطي على التلخيص ومناقشاته للذين أخذ عنهم لم تكن في الأغلب تتعدى قضايا شكلية ، لكن هذا لا يمنع أن السيوطي قدم لمادة القزويني بُعْـداً توضيحياً في كثير من جوانب قضاياه من خلال طرحه لآراء البلاغيين المختلفة .

وسأحاول في الصفحات القادمة أن أستجلي بحث السيوطي لعلم البيـان وطريقـة تناوله لقضاياه .

(١) السيوطي شرح عقود الجمان ، ص ٧٦ .

ثالثاً علم البيان :

إن تتبع مصطلح البيان في القرآن يكشف لنا عن اتجاهين في تحديد ماهية هذا المصطلح:

أولهما: اتجاه عام أبرز مصطلح البيان قسيماً للبلاغة وفن الاسلوب وكان هذا لدى العديد من العلماء والنقاد والبلاغيين القدامى حتى عصر السكاكي.

ثانيهما: اتجاه محدد قنن مصطلح البيان وحصر موضوعاته المقررة، ويبدو هذا في الوقت الذي ساد فيه المنهج الفلسفي في البحث البلاغي، وكان عهد السكاكي البداية الحقّة لذلك العصر.

فالمعروف أن السكاكي وضع للبلاغة قواعدها المنطقية وقسمها إلى المعاني والبيان وألحق بها المحسنات ووضع لكل قسم تعريفا جامعا وحدد مباحثه وفنونه، وقد عرف علم البيان "بأنه معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة وفي وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"[١] ثم ذكر أن علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني، وذلك من جهتين : جهة الانتقال من ملزوم إلى لازم وجهة الانتقال من لازم إلى ملزوم، وعليه يكون انحصار علم البيان في المجاز والكناية ويتبعهما أصلا ثالثا التشبيه: وذلك لأن الاستعارة فرع من فروع التشبيه، وجعله مقدما في العرض ودليل مهارة بيانية[٢].

ولقد طغى منهج السكاكي في حد البيان وتأصيل مباحثه على معاصريه وعلى من جاء بعده فاستوى بهذا مصطلح علم البيان في حدود ضيقة بعد أن كان يشمل فنون البلاغة وفن القول لدى السابقين[٣].

ولم يخرج السيوطي عن ركب السكاكي فحدّ علم البيان بأنه" علم يعرف به إيراد المعنى الواحد المدلول عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال بطرق مختلفة في إيضاح الدلالة عليه بأن

---

(١) السكاكي، مفتاح العلوم، ص١٦٢

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٠-٣٣١.

(٣) أحمد مطلوب، البلاغة والتطبيق ص١٥٨

يكون بعض الطرق واضح الدلالة وبعضها أوضح"[١].

وكرر السيوطي ما ذكره السكاكي - ومن بعده القزويني - حول الدلالة الوضعية للألفاظ والدلالة العقلية، وارتباط علم البيان بالدلالات العقلية دون الوضعية والطريف أنه اعتذر عن مناقشته لدلالة الألفاظ باعتبارها من علم المنطق، وسوغ ذلك بأنه أمر لغوي أكثر منه منطقيا.

وشرع بعد ذلك ببحث قضايا التشبيه فعرفه متابعا القزويني: " التشبيه الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى والمراد بالتشبيه ههنا :ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية ولا الاستعارة بالكناية والتجريد" ويعقب الدكتور محمد بركات أبو علي موضحاً: أن الدلالة اللفظ الحامل للمعنى المقصود نطقاً، والمشاركة جملة التركيب، والحديث بين المتفنن والمتلقي، والأمر الأول: المشبه والأمر الثاني: المشبه به والمعنى: وجه الشبه أو الصفة المشتركة بين المشبه والمشبه به[٢] ويظهر التعريف بالتأكيد على الفصل بين الاستعارة والتشبيه وقد ألمح السيوطي إلى الخلاف في عد قوله تعالى "صم بكم عمي" (البقرة /١٨) استعارة أو تشبيها واختار اعتبارها تشبيها بليغا بتقدير المشبه[٣].

وأخذ بعد ذلك بذكر أركان التشبيه وهي طرفاه المشبه والمشبه به والوجه والأداة، وأشار إلى أن الطرفين إما حسيان أو عقليان مختلفان وأما وجه الشبه فهو ما يشترك فيه الطرفان تحقيقا أو تخييلاً، وينقسم أيضا إلى خارج عن حقيقة الطرفين وغير خارج والخارج عن حقيقة الطرفين صفة قائمة بهما وهي قسمان حقيقية متمكنة في الذات وهي نوعان: حسيّة تدرك بالحواس وعقلية والقسم الثاني اضافية بأن تكون معنى متعلقا بشيئين[٤].

وواضح كيف يلجأ السيوطي إلى التقسيم والتجريد وهي تفريعات تمتد وتتشعب حتى يتوه طالبها في متابعتها، مما يضفي إطاراً جامدا يبعد التشبيه عن فنيته وبلاغته، ليغدو شبكة من التقسيمات كان من الممكن الاستغناء عنها والاهتمام بفنيات التشبيه وأثره في نفس المتلقي.

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان ص٧٧.

(٢) محمد بركات ابو علي، كيف نقرأ تراثنا البلاغي، ص٦٨

(٣) السيوطي ، المصدر السابق، ص٧٨

(٤) المصدر نفسه ص٨٠

واستمر السيوطي في تتبع تقسيمات التشبيه كما وردت عند سابقيه كالسكاكي والقزويني فأشار إلى أن وجه الشبه ينقسم أيضا إلى ثلاثة أقسام: واحد ومركب من متعدد تركيباً حقيقياً بأن تكون ملتئمة من أمور مختلفة أو اعتبارياً بأن تكون هيئة انتزعها العقل من عدة أمور وإلى متعدد(١) وألمح بعد ذلك إلى أن كل واحد من هذه الثلاثة إما حسي أو عقلي والثالث بعضه عقلي وبعضه حسّي، مشيراً إلى أن العقلي أعم من الحسي لجواز أن يدرك بالعقل من المحسوس شيء وقال: إن كل ما صح فيه التشبيه بالوجه الحسي صح الوجه العقلي ولا عكس(٢). وذكر أن وجه الشبه إذا كان مركبا حسيا فإن طرفيه إما مفردان أو مركبان أو أحدهما مفرد والآخر مركب، وعضد ذلك بشواهد شعرية توقف عندها وحللها ، فقد أورد قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وعقب عليه بقوله:" إنه شبه هيئة السيوف وقد سلت من أغمادها وهي تعلو وترسب وتجيء وتذهب، وتضطرب اضطراباً شديداً وتتحرك بسرعة إلى جهات مختلفة وعلى أحوال تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة والارتفاع والانخفاض مع التلاقي والتداخل، وكذا في جانب المشبه به فإن للكواكب في تهاويها تواقعاً وتداخلاً واستطالة لأشكالها(٣). وأكد السيوطي أن وجه الشبه ربما انتزع من متعدد ويقع الخطأ إذا انتزع من جزء من جملة التشبيه، كما ينتزع من التضاد نفسه على سبيل التورية والتهكم فيقال للجبان: ما أشبهه بالأسد(٤).

ثم تناول أدوات التشبيه وهي الكاف ومثل وكأن ونحوها مما يشتق من المماثلة والمشابهة كنحو وشبه، وأشار إلى أن" مثل "لا يستعمل إلا في حال أو صفة لها شأن وفيها غرابة وذكر أن الطيبي نبه على ذلك(٥).

ومضى السيوطي في مناقشة مباحث التشبيه فتحدث عن أغراضه وذكر أن الغرض من التشبيه هو ما يقصده المتكلم في إيراده وهو عائد إلى المشبه غالباً وقد يعود إلى المشبه به، فالذي

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ص٨١.

(٢) المصدر نفسه ،ص٨١.

(٣) المصدر نفسه ص٨٢.

(٤) المصدر نفسه ص٨٣.

(٥) المصدر نفسه ، ص٨٤.

يعود إلى المشبه يأتي على وجوه من أبرزها:

بيان إمكان وجوده، وبيان حال المشبه بأنه على أي وصف من الأوصاف، وبيان قدر حال المشبه في القوة والضعف والزيادة ومنها أيضا تقرير حال المشبه به في نفس السامع وغيرها(١).

أما عن الأغراض العائدة إلى المشبه به فمنها إيهام أنه أتم من المشبه في وجه الشبه وذلك في التشبيه المقلوب، ويكون أيضا لبيان الاهتمام بالمشبه به ويسمى إظهار المطلوب.

وينتهي السيوطي من هذا التفريق إلى بسط الفرق بين التشبيه والتشابه إذ التشابه يعني التماثل في المشبه والمشبه به من وجه واحد وصفة تتساوى بينهما، وهذا أقرب إلى الحقيقة منه إلى المجاز (٢).

والسيوطي في عرضه لأغراض التشبيه إتما سار على نهج القزويني وذكر شواهده ذاتها وأضاف في أكثر المواضع بإزاء كل شاهد من شواهد القزويني شاهداً أو شاهدين من عنده، وهو بعد ذلك يوسع عرضه بما يضيفه من آراء لعلماء البلاغة الذين عاصروه والذين سبقوه .وقسم السيوطي التشبيه في ضوء عدة اعتبارات وفق منهجية الآخرين، فباعتبار طرفيه ينقسم إلى أربعة أقسام: مفرد بمفرد ومركب بمركب ومركب بمفرد ومفرد بمركب.

وينقسم باعتبار تعدد الطرفين إلى أربعة أقسام: منها الملفوف إذا تعدد وبدئ بالمشبهات أولا ثم المشبهات بها كقول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

وفصّل في ذكر شواهد التشبيه المفروق بدأها من تشبيه أربعة بأربعة وانتهى بتشبيه عشرة بعشرة وجميعها من زيادته ولم ترد عند القزويني في تلخيصه(٣).

وذكر من أقسامه: تشبيه تسوية إذا تعدد المشبه دون المشبه به، وتشبيه جمع تعدد

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان ص٨٤.

(٢) المصدر نفسه ص٨٦.

(٣) المصدر نفسه ص٨٧.

المشبه به دون المشبه[١].

أما باعتبار وجه الشبه فينقسم التشبيه إلى تمثيل وغيره، وعرّف السيوطي التمثيل بأنه ما كان وجه الشبه فيه وصفا منتزعا من متعدد، أما غير التمثيل فهو ما لا يكون وجهه منتزعا من متعدد، كما ينقسم إلى مفصل ومجمل وذلك بذكر وجه الشبه أو حذفه، ويقسم أيضا إلى قريب مبتذل وبعيد غريب.

وانتقل السيوطي إلى أنواع التشبيه من حيث ذكر الأداة وحذفها فذكر أنه يقسم إلى مؤكد محذوف الأداة ومرسل لم تحذف أداته.

كما يقسم باعتبار الغرض إلى مقبول واف بإفادة الغرض، ومردود خلاف ذلك.

وأشار السيوطي إلى أن أعلى مراتب التشبيه في قوة المبالغة ما حذف وجهه وأداته، أو مع حذف المشبه نحو "أسد" في مقام الإخبار عن زيد، ويليه ما حذف الوجه فقط أو الأداة فقط أو مع حذف المشبه[٢].

ويظهر لنا من هذا العرض أن السيوطي يجهد نفسه في تجميع مواد مبحث التشبيه، كما انه يمضي في التقسيمات والتفريعات حتى لا يكاد يترك شاردة فيما هو بصدده. ويعضد عرضه بشواهد من الآي القرآني والشعر العربي وهو يحرص في كثير من الأحيان على التعقيب على الشواهد بالتحليل وبيان المعنى الذي أداه المصطلح البلاغي، ومع ذلك فإن المعيارية والملمح المنطقي يوشحان مقالة السيوطي وبحثه.

-الحقيقة والمجاز :

وانتقل السيوطي بعد بحثه للتشبيه إلى تناول موضوع الحقيقة والمجاز وهو موضوع شائك متشعب احتل حيزا لا بأس به في مختلف تآليف السيوطي فذكره في" العقود "وفي المزهر وفي الإتقان والمعترك وكان لكل كتاب منهجه الخاص في طرح الموضوع وسنحاول أن نعرض لتناوله للمجاز في العقود والمزهر على أن يكون حديث الإتقان والمعترك في الفصل

(١) السيوطي شرح عقود الجمان ص٨٧.

(٢) المصدر نفسه ص٨٨-٩٢.

المخصص للبلاغة القرآنية عند السيوطي..

وقبلاً نحاول تلمس بحث المجاز عند العلماء السابقين للسيوطي ، فقد احتل مبحث المجاز مساحة متسعة في الدراسات اللغوية والقرآنية والكلامية والبلاغية، وقد تنازعته اتجاهات عقلية وذوقية متباينة، وتحدثنا كتب التراث عن موقفين رئيسين للعلماء من قضية المجاز : الأول أنكر وقوع المجاز في اللغة والنصوص الدينية من آي القران الكريم والحديث الشريف .والثاني أثبت وجوده في مقابل الاستخدام الحقيقي للغة.

ويعد عبد القاهر الجرجاني من أبرز من أحكم تناول المجاز بنظراته العقلية والفنية فأرساه على أسس ثابتة استضاء بها البلاغيون الذين جاؤوا بعده وقلدوه بين مستفيض وملخص.

فقد أشار الجرجاني إلى وجوب ملاحظة أصل اللغة التي ننقلها من معناها الأصلي إلى مدلولها المجازي "ومعنى الملاحظة أن الاسم يقع لما تقول انه مجاز فيه، بسبب بينه وبين الذي تجعله حقيقة فيه نحو : أن اليد تقع للنعمة وأصلها للجارحة ..ومن شأن النعمة أن تصدر عن اليد ومنها تصل إلى المقصود بها والموهوبة هي منه[١].

وواضح هنا أن عبد القاهر يشير إلى علاقة المجاز وعليه لم يجز استعماله في الالفاظ التي يقع فيها اشتراك من غير أن يكون هناك سبب بين المشتركين" مثل أن يكون "الثور "اسما للقطعة الكبيرة من الأقط[٢]، و"النهار "اسم لفرخ الحبارى و"الليل" لولد الكروان، وذلك أن اسم الثور لم يقع على الأقط لأمر بينه وبين الحيوان[٣].

وتحدث عن حد الجملة في الحقيقة والمجاز وقال :"بأننا يجب أن نعرف أصلا وهو المعنى الذي من أجله اختصت الفائدة بالجملة ولم تجز حصولها بالكلمة الواحدة كالاسم الواحد والفعل من غير اسم يضم إليه،والعلة في ذلك أن مدار الفائدة في الحقيقة على الاثبات والنفي ...."[٤]، والجرجاني يقسم المجاز إلى قسمين: مجاز في الإسناد ومجاز في المسند

---

(١) الجرجاني ، اسرار البلاغة ،ص٣٦٥.

(٢) الاقط : الجبن المستخد من اللبن الحامض

(٣) الجرجاني ، المصدر السابق ص٣٦٦.

(٤) المصدر نفسه ص٣٣٨.

ومرجع المجاز في الإسناد إلى العقل، وأشار إلى أن المجاز يقسم إلى قسمين مجاز لغوي ومجاز عقلي، وفي ذلك يقول:" واعلم أن المجاز على ضربين مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى و المعقول، فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا" اليد "مجاز في" النعمة"........كان حكما أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة لأنا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي

وقعت له ابتداء في اللغة وأوقعها على غير ذلك إما تشبيها وإما لصلة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه. ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة، وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل لا يصح ردها إلى اللغة ولا وجه لنسبتها إلى واضعها لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اسم إلى اسم ،وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم(١).

وهكذا نجد أن الجرجاني قسم المجاز إلى عقلي يعتمد على الإسناد ولغوي وهو نوعان :

الأول لا يقوم على المشابهة بل لصلة وملابسة بين الكلمة ومعناها وهو المجاز المرسل.

والثاني : يقوم على المشابهة وهو ما يسمى بالاستعارة(٢).

ولم يخرج الرازي عن الأسس التي وضعها الجرجاني فقد ذكر أن للمجاز شرطين هما: النقل عن المعنى اللغوي الأصلي والمناسبة أو العلاقة(٣) ثم تناول أقسام المجاز وهي عنده قسم في الإثبات وقسم في المثبت وقسم فيهما جميعا، وهو في تقسيمه هذا يسير على خطى الجرجاني ويذكر شواهده ذاتها(٤).

وإذا انتقلنا إلى السكاكي نراه قد تحدث عن الحقيقة قبل المجاز فتعرض لدلالات الكلم على مفهوماتها ولمعنى الوضع والواضع، وأشار إلى أن الذي خص الألفاظ بدلالاتها على معانيها إما الذات أو غيرها، وغيرها إما الله تعالى وتقدس أو غيره، وبذلك تدل الألفاظ على

---

(١) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٣٧٦

(٢) احمد مطلوب ، فنون بلاغية ص٩٣.

(٣) الرازي ، نهاية الإيجاز، ص٨١.

(٤) المصدر نفسه، ص٨١.

معانيها إما دلالة ذاتية أو بإرادة واضع لها وهو الله أو الإنسان[١].

ثم انتقل إلى المجاز فعرفه بقوله: هو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالا في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إرادة معناها في ذلك النوع[٢].

وتحدث عن أقسام المجاز وقسمه إلى قسمين: لغوي ويسمى مجازا في المفرد وعقلي ويسمى مجازاً في الجملة[٣].

ولقد تلقف القزويني مبحث المجاز بشتى أنواعه عند السكاكي، كما تناول دراسة الكنايه عنده فلخص هذا وذاك في تلخيصه ثم بسطه في إيضاحه فأعطى هذه الموضوعات قوالبها الراسخة التي وضعت الحدود والتعريفات والخصائص المميزة لألوان البيان.

ومن يتتبع حال المجاز في كتب البلاغة من عبد القاهر إلى ملخصي مفتاح العلوم وشراحه وسواهم يلحظ أن منهج بحث هذه الألوان البيانية قد تأرجح بين المنهج التحليلي الذوقي والمنهج التقريري الحدي والشواهد في هذا المنهج أو ذاك إما أدبية فنية وإما أحاديث مصنوعة.

وتناول السيوطي مبحث الحقيقة والمجاز باعتباره القصد الثاني من علم البيان وأشار إلى أن المقصود " المجاز "وتذكر الحقيقة لأنها أصل له، وقد بحث في هذا القسم حدّ الحقيقة والمجاز وعلاقات المجاز المرسل وتوقف عند الاستعارة وأنهى حديثه بتناول الكناية.

ولعلي فيما يلي من سطور أقف على الخطوط العريضة لمنهجية البحث عند السيوطي وبيان أهم مناقشاته وتحليلاته.

فقد بدأ السيوطي بحثه بتحديد مصطلح الحقيقة فعرّفها بأنها الكلمة المستعملة في معنى وضعت له في اصطلاح التخاطب[٤] أما المجاز فهو عنده مفرد ومركب والمفرد: الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب على وجه تصح معه قرينة عدم

---

(١) السكاكي، مفتاح العلوم، ص٣٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٩.

(٤) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص ٩٤

إرادته[١].

ولم يقف السيوطي عند التعريف بالمجاز المركب بل تجاوزه إلى مناقشة تعريفات السكاكي للحقيقة والمجاز وحده لهما بالتأويل والتحقيق، وأخذ عليه هذه الإطالة لأن الحدود تصان عن التطويل كما يقول.

ثم ذكر أن كلا من الحقيقة والمجاز ينقسم إلى "لغوي وشرعي وعرفي خاص متعين ناقله، وعرفي عام، فالأول كالأسد للسبع حقيقة لغوية والشجاع مجازا لغويا، والثاني كالصلاة للعبادة المخصوصة حقيقة شرعية والدعاء مجازاً شرعياً، والثالث كالفعل للفظ المخصص حقيقة عرفية خاصة نحوية ومطلق الحدث مجازا نحويا، والرابع الدابة حقيقة عرفية عامة والإنسان مجازاً عرفياً عاماً[٢]. وهكذا يقدم السيوطي لبحث المجاز فيرسم خطوطه العامة ويضع مفاتيح بحثه في مقدمة قوله، ليشرع بعد ذلك بتفصيل جزئيات موضوعه.

وقسم السيوطي المجاز المرسل إلى عقلي وتعبيري وخال عن الفائدة ومرسل واستعارة ، وجعل هذا التقسيم مقدمة لتناول علاقات المجاز المرسل الذي حده بما كانت علاقته غير المشابهة، ومثل له بإطلاق اليد على النعمة والقدرة ، واستعمال الجزء في الكل وعكسه ، وتسميته الشيء باسم آلته أو سببه أو مسببه أو حاله أو محله أو مجاوره أو ما يؤول إليه أو ما كان عليه، ومثل لكل جزء بشاهد ، وقد اقتصرت شواهده على الآي القرآني والحديث النبوي الشريف باستثناء أمثلة السبب والمسبب فهي أمثلة مصنوعة[٣].

وانتقل من علاقات المجاز المرسل للحديث عن الاستعارة وعرفها بأنها اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي لعلاقة المشابهة ، واختار متابعة للقزويني أنها مجاز لغوي وذكر أنها قد تقيد بالحقيقة وهي ما تحقق معناها حساً أو عقلاً ،وأشار إلى أنها تفارق الكذب بالتأويل ونصب القرينة التي تكون أمرا واحداً أو معاني ملتئمة[٤].

وفي أقسام الاستعارة تابع السيوطي ما تعارف عليه السكاكي ومن بعده القزويني في

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص٩٠

(٢) المصدر نفسه، ص٩٢

(٣)المصدر نفسه، ص٩٢

(٤) المصدر نفسه ،ص٩٣

تفريع الاستعارة باعتبارات عديدة نتج عنها العديد من الأقسام المتداخلة ، وهو بذلك اختار إضفاء الصبغة الفلسفية على الاستعارة وإهمال الجانب الفني فيها.

وعليه كانت الاستعارة عنده "وفاقية" "و "عنادية" باعتبار الطرفين ، وجعل من العنادية الاستعارة التهكمية والتمليحية ، ثم قسمها باعتبار الجامع إلى قسمين : داخل في مفهوم الطرفين كحديث" : كلما سمع هيعة طار " وغير داخل كاستعارة الأسد للرجل الشجاع.

وتقسم باعتبار الجامع أيضا إلى عامية مبتذله ، وهي ما يظهر فيها الجامع وخاصة غريبة وهي مالا يظهر فيها الجامع إلا بدقة[١].

وقسمها باعتبار الثلاثة (المستعار منه وله والجامع) إلى ستة أقسام ، لأنها إما حسيان أو عقليان أو المستعار منه حسي والمستعار له عقلي أو بالعكس والجامع في الثلاثة الأخيرة عقلي لا غير وفي الأول إما حسي أو عقلي أو مختلف[٢].

ثم يفصل ذلك بضرب أمثلة على كل قسم ، وشواهده كلها لا تخرج عما جاء به القزويني[٣].

وقسمها باعتبار اللفظ إلى أصلية وهي ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس ، وتبعية بأن لا يكون اسم جنس كالفعل والمشتق منه[٤].

وذكر السيوطي في هذا المقام فائدة من علم الحديث حيث ذكر الروايات المختلفة للحديث (إن ملكاً بباب السماء ينادي كل يوم لدوا للموت وابنوا للخراب) وهو بهذا يوظف معلوماته الحديثية لخدمة قراء البلاغة.

ثم قسم الاستعارة باعتبار ما يلحقها من توابع إلى مطلقة لم تقترن بصفة ولا تفريع،والمراد الصفة المعنوية لا النعت النحوي ، ومجردة وهي ما قرنت بما يلائم المستعار له، ومرشحة وهي ما قرن بما يلائم المستعار منه كقوله تعالى: " أولئك الذين اشتروا الضلالة

---

(١) السيوطي ،شرح عقود الجمان، ص٩٤.

(٢) المصدر نفسه،ص٩٤.

(٣) المصدر نفسه ، ص٩٥.

(٤) القزويني ،شرح التخليص ص١٤٣.

بالهدى فما ربحت تجارتهم "(البقرة/ ١٦) وقد يجتمع التجريد والترشيح[١].

وبعد هذا الخوض في تقسيمات الاستعارة انتقل السيوطي للتحدث عن المجاز المركب وهو اللفظ المستعمل فيما شبه معناه الأصلي تشبيه تمثيل بأن يكون وجهه منتزعاً من متعدد للمبالغة في التشبيه ، كأن تقول للمتردد : إني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى[٢]، وهو هنا يتحدث عما اصطلح على تسميته بالاستعارة التمثيلية.

ثم تحدث عن الاستعارة التي ليست بحقيقة وهي التخييلية والمكنية وذكر نقلاً عن صاحب التلخيص أنهما حقيقتان لغويتان غير داخلتين في قسم المجاز لأنها لم تستعمل في المشبه به.

ووقف في خاتمة بحثه للاستعارة على شرائط حسن الاستعارة ، فالتخييلية حسنهما بحسب المكنى عنها وأما التحقيقية والتمثيلية فحسنها برعاية جهات حسن التشبيه[٣] وذكر نقلا عن الطيبي :أنَ الاستعارة التخيلية مؤكدة بمعنى المشاركة كقوله تعالى : "إنّ الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم" (الفتح/ ١٠). أكد بقوله "يد الله "بعد التخييل لمعنى المشاكلة في "يبايعونك"، وكذلك أن يكون في الكلام عدة استعارات نحو "فأذاقها الله لباس الجوع والخوف(النمل/ ١١٢)[٤] استعارة القرية للأهل على سبيل الكناية ، والخوف للكسوة على الحقيقة وعدل عن كساها لان الإذاقة أقوى في الإدراك من اللمس واللباس والجوع.

وأشار إلى أن المجاز قد يطلق على كلمة تغير إعرابها بزيادة لفظ أو حذفه نحو قوله تعالى:"ليس كمثله شيء" (الشورى/ ١١)أي ليس مثله ، لأن المقصود نفي أن يكون شيء مثله تعالى لا نفي أن يكون شيء مثل مثله فالأصل فيه نصب خبر ليس فتغير إلى الجر بزيادة الكاف[٥].

وهو بكل ما سبق يتبع ما سار عليه القزويني والسكاكي من قبل ،إذ يلزم عرض

---

(١) السيوطي ،شرح عقود الجمان ص٩٦.

(٢) المصدر نفسه ص٩٨.

(٣) المصدر نفسه ص٩٨

(٤) المصدر نفسه ،ص١٠٠

(٥) المصدر نفسه ص ١٠١.

الاستعارة عن طريق تقسيماتها ويركز على تفريعاتها لتغدو شبكة من الأقسام يضعف خلالها الدور الفني الذي تؤديه ، وكان حرياً بالسيوطي أن يهتم بالجانب الأدبي في عرض الاستعارة خاصة أنه يدعي اتباع المنهج الأدبي في البلاغة .

الكناية:

بدأ السيوطي بتعريفها وهي عنده: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه . ولذا فهي تخالف المجاز بجواز إرادة المعنى الحقيقي مع اللازم(١).

ونقل عن ابن مالك في مصباحه أنه يعدل عن التصريح إلى الكناية للنكتة كالإيضاح أو بيان حال الموصوف أو مقدار حاله أو القصر إلى المدح أو الذم أو الاختصار أو الستر أو الصدفة أو التعمية والإلغاز وغيرها(٢).

ثم قسم الكناية إلى ثلاثة أقسام :

الأول :ما يطلب بها غير صفة ولا نسبة الموصوف وتكون لمعنى واحد أو معان مجتمعة واشترط فيها الاختصاص بالمكني عنه بأن لا يوجد لغيره ليحصل الانتقال.

الثاني :ما المطلوب بها صفة من الصفات وهي إما قريبة ينتقل منها الذهن إلى المطلوب بلا واسطة وتكون واضحة وخفيفة ، أو بعيدة ينتقل فيها بواسطة.

الثالث :ما يطلب به نسبة أمر لأمر أو نفيه عنه.

وأضاف السيوطي كناية رابعة وهي ما يكون المطلوب بها صفة ونسبة معا ومثل لها بالقول : كثر الرماد في ساحة زيد(٣).

وواضح أن القسم الرابع الذي زاده السيوطي هو جمع لكنايتين وليس قسماً جديداً. وأشار إلى أن الزمخشري قد استنبط نوعاً خامساً وهو أن تعمد إلى جملة معناها خلاف الظاهر فتأخذ الخلاصة من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة والمجاز فتعبر بها عن المقصود كما تقول في

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ص١٠١

(٢) المصدر نفسه، ص١٠١.

(٣)المصدر نفسه، ص١٠١.

نحو (الرحمن على العرش استوى) (طه/٥) إنه كناية عن الملك[١].

وذكر أن السكاكي قسم الكناية إلى تعريض ورمز وإشارة وإيماء، وأشار إلى أن التقي السبكي قسم التعريض إلى قسمين : قسمٌ يراد به معناه الحقيقي ويشار به إلى المعنى الآخر المقصود ، وقسم لإيراد بل يضرب مثلا للمعنى الذي هو مقصود التعريف[٢] كقول إبراهيم عليه السلام "بل فعله كبيرهم" (الأنبياء/٦٢).

وختم السيوطي حديثة عن علم البيان بتأكيد حقيقة أن المجاز أبلغ من الحقيقة، والكناية أبلغ من التصريح أن الاستعارة أبلغ من التشبيه لأنها مجاز وهو حقيقة ، والمراد بالأبلغية زيادة تأكيد للإثبات ومبالغة في الكمال في التشبيه لا زيادة في المعنى[٣].

ونقل السيوطي عن مجموعة من العلماء آراءهم في ترتيب أقسام المجاز والاستعارة والكناية من حيث الأبلغية كان منهم القزويني والزمخشري والطيبي والشيخ بهاء الدين وغيرهم[٤]، ولم يكن له رأي خاص بل كان مجرد ناقل معدد ، وكان الأولى أن يتجاوز هذا الترتيب إذ لا طائل منه.

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان، ص١٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٣) المصدر نفسه ص١٠٤

(٤) المصدر نفسه ص١٠٥.

رابعاً : علم البديع

تظهر لنا الدراسات البلاغية أن مصطلح البديع قد تعاقبه اتجاهان متواصلان :

الأول: اتجاه عام ظهر في ضوئه مصطلح البديع ومفهومه على المدى المتسع يقابله مصطلح البلاغة بشتى علومها التي استقرت عليها.

الثاني : اتجاه خاص لعلم مصطلح البديع ومفهومه وحصره في إطار محدد أطلق عليه علم البديع بمحسناته اللفظية والمعنوية .

وقد أشار السيوطي في مقدمة بحثه للبديع إلى التسلسل التاريخي لعلم البديع فقال: "البديع في اللغة الغريب، وأول من اخترعه وسماه بهذا الاسم عبد الله بن المعتز، وجمع منها سبعة عشر نوعاً وقال في أول كتابه: وما جمع قبلي فنون البديع أحد ولا سبقني إليه مؤلف وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين"، وعاصره قدامة الكاتب فجمع منها عشرين نوعا توارد فيها على سبعة فكان ما زاده ثلاثة عشر نوعاً فتكامل لهما ثلاثون، ثم تبعهما الناس فجمع أبو هلال العسكري سبعة وثلاثين، ثم جمع ابن رشيق مثلها، وتلاهما شرف الدين التيفاشي فبلغ بها السبعين، ثم تكلم فيها ابن أبي الأصبع فأبدع وذكر أنه وقف على أربعين كتاباً في هذا العلم وأخذ منها سبعين واستخرج عشرين، ثم صنف ابن منقذ كتاب "التفريع في البديع" جمع فيه خمسة وتسعين نوعا ثم جاء صفي الدين الحلي فجمع فيها مائه وأربعين نوعاً في قصيدة نبوية ثم زاد من زاد، ثم رأيت بديعية فيها أكثر من مائتي نوع، وأما السكاكي فذكر منها تسعة وعشرين ثم قال: ولك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت وتقلب كلا من ذلك ما أحببت، وذكر صاحب التلخيص من البديع المعنوي ثلاثين نوعا ومن اللفظي سبعة، وذكر في أثنائها أموراً ملحقة بها تصلح أن تعد أنواعاً أخر، وقد زدت عليه الجمّ الغفير"(١).

وهو هنا يلتزم دور المؤرخ في استعراض حركة التأليف البديعي مركزا على ما أنتجه المؤلفون من أنواع للبديع ليبرز لنا دوره وسط هذه الحركة ، وسنحاول فيما يلي تلمس الجهد السيوطي في مبحث البديع وبيان نتاجه التابع والجديد .

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص١٠٥ .

تناول السيوطي البديع في مؤلفاته البلاغية سواء ما كان منها بلاغياً صرفاً أم ما كان ضمن علوم القران وإعجازه، إذ يشكل البديع القسم الثالث من كتاب (عقود الجمان في المعاني والبيان) مع أنه لم يورد كلمة "بديع" في الفنون ولعل الحرص على الجناس في العنوان جعله يسقطها منه، كما أنه ألف في البديع بديعيته المسماة (نظم البديع في مدح خير شفيع) على غرار أصحاب البديعيات، وجاءت في (١٣٣) بيتا وقد ذكر فيها مائة وسبعة وأربعين نوعا من أنواع البديع، ويلاحظ على هذه البديعية بموازنتها بفنون البديع في عقود الجمان أنه أورد فيها أنواعا جديدة من المحسنات البديعية لم ترد في عقود الجمان مثل: أسلوب الحكيم والمتطوع والتعبير وغيرها، في حين أخل فيها بأنواع بديعية منها الجناس المطلق، والتمثيل ومراعاة النظير.

ثم ألف كتاب (جني الجناس) وجعله مختصاً من البديع بالجناس فقد جعل أنواع الجناس ثلاثة عشر نوعاً رئيساً، وكل نوع من هذه الأنواع تقسم عدة أقسام وكل قسم قد يكون ركناه من نوع واحد أو نوعين، و تعددت الأقسام وتنوعت حتى زادت عن الأربعمائة نوع. ولعل هذا التقسيم يدخل من باب الرياضات العقلية التي أجهد السيوطي نفسه بها دون أن يكون لها فائدة بيانية أو ملحة أدبية، ويسوغ للسيوطي ما حشده من مادة أدبية شواهد وأمثلة لأنواعه وقصره التناول اللفظي على أسطر عدة لا غير.

وكان للبديع مكان لافت في البلاغة القرآنية عند السيوطي وسأعرض لها في حينها إذ سينصب بحثنا في هذا المقام على ما جاء عنده في كتبه الثلاثة آنفة الذكر .فقد عرف السيوطي البديع بأنه "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام أي تصور معانيها وتعلم أعدادها وتفاصيلها بحسب الطاقة، بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال، ورعاية وضوح دلالته: أي خلوه عن التعقيد المعنوي إذ لا تعتبر وتعد محسنة للكلام إلا بعد رعايتها وإلا كان كتعليق الدر على الخنازير" (١).

وتناول السيوطي مباحث البديع تحت قسمين رئيسين: المعنوي واللفظي. أما المحسنات المعنوية عنده فلقد بلغت أربعة وسبعين نوعاً، يمكن تصنيفها على ثلاثة أصناف:

---

(١)السيوطي، شرح عقود الجمان، ص١٠٥.

- صنف ضم محسنات معنوية استقر عليها علماء البلاغة ولها حدودها الواضحة وتعريفاتها المقررة ومن أبرزها الطباق، المقابلة، التدبيج، مراعاة النظير وغيرها .

- وصنف تقلبت فيه مصطلحات لا طائل وراءها ولاتقدم جديدا يؤدى عن نوع مستقل بذاته، وإنما تختلط مع موضوعات من البيان وتشترك مع محسنات معنوية أخرى في كثير من ملامحها، ومن ذلك مصطلحات: التوشيح، السلب التهكم، الجمع والتفريق، الإبهام، الألغاز، الالتفات، الطرد والعكس، وغيرها.

- وصنف زعم السيوطي أنه ابتدعها واخترعها وهي التأسيس والتفريع وتمهيد الدليل. والتصحيف.

وسأحاول أن أتوقف عند النوعين الأول والأخير لنتعرف الجهد السيوطي في هذا المقام اتباعا وإبداعا .

وكان أول نوع تحدث عنه السيوطي من البديع المعنوي هو (الطباق) وذكر أنه يسمى المطابقة والتطبيق ، ثم تحدث عن معناه لغة واصطلاحا فقال: والتطابق لغة: أن يضع البعير رجله موضع يده، يقال منه: طابق البعير إذا فعل ذلك، واصطلاحاً: الجمع بين متضادين أو متقابلين في الجملة أي سواء كان التقابل حقيقيا أو اعتبارياً أو بالإيجاب والسلب (١).

وأضاف موضحاً أنه ليس المراد بالضدين اللذين لا يجتمعان كالبياض والسواد، ثم ذكر أنه يقال لهذا النوع أيضاً التضاد والمقاسمة والتكافؤ (٢). وأخذ السيوطي المعنى الاصطلاحي للطباق عن سعد الدين التفتازاني (٣).

وقسم السيوطي الطباق إلى أقسام وهي: أن يكونا من نوع واحد كاسمين نحو قوله تعالى (وتَحْسَبهم أيقاظا وهم رُقودٌ) (الكهف/١٨) أو يكونا فعلين كقوله تعالى: (يحيي ويميت) (البقرة/٢٥٨) وذكر أربعة أحاديث نبوية أمثلة لهذا النوع (٤).

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ص١٠٥، السيوطي، شرح البديعية، ص١١٠.

(٢) السيوطي ، المصدر السابق،ص١٠٥ .

(٣)التفتازاني، مختصر السعد، ج٤، ٢٨٧.

(٤) السيوطي، المصدر السابق،ص١٠٦ .

كما قد يكونان حرفين نحو قوله تعالى: (لها ما كَسَبتْ وعليها ما اكتَسبت) (البقرة/٢٨٦) وتارة من نوعين نحو (أو من كان ميتا فأحييناه) (الأنعام/١٢٢). وأشار إلى أنهما – طرفي الطباق – قد يكونان حقيقيين أو مجازيين كالآية الأخيرة ، وقد يكونان مختلفين[١] كقول الشاعر :

لا تعجبي يا هند من رجلٍ ضحك المشيب برأسه فبكى

وألمح إلى أنه كما يكون الطباق الإيجاب – كما سبق من أمثلة – يكون في النفي كقول الرسول عليه السلام: (كونوا للعلم وعاة ولا تكونوا له رواة)

وألحقَ السيوطي بالطباق ما كان راجعا للمضادة بالتأويل كالتسبب في قوله تعالى: (أشِدَّاء على الكفَّار رُحَماءُ بينهم) (الفتح/٢٩) لأن الرحمة متسببة عن اللين الذي هو ضد الشدة .

وأضاف من زيادته أن بعضهم شرط في الطباق توافق اللفظيين فلا يجيء في اسم وفعل ولا عكسه ولا في حقيقة ومجاز فذلك يخص باسم التكافؤ على أن آخرين ذكروا أن المطابقة مجردة ليس تحتها كبير أمر فإن قصارى ذلك أن يطابق الضد بالضد [٢].

ولعل السيوطي يشير فيما قال سابقاً إلى قدامة بن جعفر الذي حد التكافؤ بما نقله، وإلى ابن حجة الحموي الذي أطلق مفهوم الطباق دون تقييد [٣].

وقد تابع السيوطي القزويني فيما نقله حول الطباق وأقسامه وتمثل بجزء من شواهده لكن الملاحظ أن القزويني جعل الطباق في مثل الآية (أشداء على الكفار)من إيهام التضاد ، لان المعنيين قد ذكرا بلفظين يوهمان التضاد نظراً إلى الظاهر[٤] ، ولم يشر السيوطي إلى ذلك مطلقا.

وفصل السيوطي أوجه تزيين الطباق بألوان من البديع كالعكس والتكميل في قوله

---

(١) السيوطي شرح عقود الجمان ، ص ١٠٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٠٦ .

(٣) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، ص٧١ .

(٤) القزويني ، شرح التلخيص ، ص١٦٣ .

تعالى: (تُولجُ الليلَ في النهارِ وتُولجُ النهارَ في الليلِ وتُخرجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ وتُخرج الميِّت من الحيِّ) (سورة آل عمران/الآية ٢٧) والجناس كقول أبي تمام :

بيض الصفائح لا سود الصحائف في　　متونهن جلاء الشك والريب

وغيرها من وجوه التزيين المختلفة [١].

وأضاف السيوطي من زيادته طباق الترديد ووضحه بقوله: أن ترد أواخر الكلم المطابق على أوله، فإن خلا من الطباق فهو رد العجز على الصدر [٢]، ومثل له بقول الأعشى:

لا يرفع الناس ما أوهوا وإن جهدوا　　طوال الحياة ولا يوهون ما رفعوا

وأشار السيوطي إلى أن من الطباق ما يسمى (التدبيج) وعرفه بأن يؤتى في المدح أو غيره بألوان لقصد الكناية أو التورية لما بين اللونين من التقابل [٣].

ومثل له بشاهد القزويني وهو قول أبي تمام :

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى　　لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وبقول الرسول علية الصلاة والسلام: (ما من عبد يموت فيترك صفراء أو بيضاء إلا جعل الله بكل قيراط منها صفحة من نار).

وتناول مصطلح (المقابلة) التي هي من الطباق لكنها أخص منه وهي أن تذكر لفظين أو أكثر ثم أضدادهما على الترتيب الأول فالأول[٤] ومثل لها بشواهد عديدة من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر كان منها قوله علية السلام: (مروا بالمعروف وإن لم تفعلوه وانهوا عن المنكر وإن كنتم تفعلونه) .

وأشار خلال حديثه عن المقابلة إلى (التفويف)

وعرفه متابعاً الطيبي بأن يؤتى بمعان ملائمة في جمل مستوية المقدار[٥].

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص١٠٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٧ .

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٧ .

(٤) المصدر نفسه ص١٠٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص١٠٨.

وانتقل بعد ذلك للحديث عن (مراعاة النظير) وذكر أنه يسمى التناسب والتفويف والائتلاف والمؤاخاة وعرفه بأن تجمع أمرا وما يناسبه لا بالتضاد [١]، وأشار إلى أنه أضاف منها أن يناسب اللفظ المعنى والثاني أن يناسب اللفظ اللفظ والثالث وهو أن يناسب المعنى المعنى وذكر أن هذا الأخير يسمى تشابه الأطراف [٢].

واستشهد لذلك بأمثلة شعرية وآيات قرآنية كان في أغلبها تابعاً لابن مالك في مصباحه تمثيلاً وتعليقا [٣] . وذكر تتمة لموضوعه أن ذكر الشيء مع مالا يناسبه عيب وإن كان جائزاً كقول أبي نواس:

وقد حلفت يميناً   مبرورة لا تكذب
برب زمزم والحوض   والصفا والمحصب

وعقب عليه بما ذكره أبو جعفر الأندلسي من أنهم عابوا علية ذكر الحوض مع زمزم فإنه غير مناسب ذكر الحوض مع الميزان [٤].وعلل السيوطي ذكر الحوض عنده بأنه قد يكون أراد حوض زمزم الذي يسقى منه وله قال بدله البيت لسلم، وهنا نلمح نظرة نقدية عند السيوطي يوشح بها اختياراته، وتستمر هذه النظرة حينما علَّق على رأي الأندلسي الذي يجعل مجيء المتناسبين أحدهما مفرد والآخر مثنى أو جمع عيباً في القول - حيث يرى أن ذلك ليس بعيب وهو من تفنن الخطاب [٥].

وبحث (الإرصاد) فعرفه قائلاً: أن يكون فيما تقدم من البيت أو النثر دليل على آخر إذا عرف الروي فكأنه أرصد الكلام الأول لمعرفة آخره [٦].

والسيوطي نقل التعريف بمعناه دون ألفاظه عن القزويني [٧]. وألمح إلى أنه قسمان: أولهما: أن تكون دلالته لفظية ومثل له بقوله تعالى: (وما كان النَّاسُ إلا أمةً

---

(١) السيوطي ، شرح البديعية، ص١٦١

(٢) السيوطي ، شرح العقود، ص١٠٩، السيوطي شرح البديعية، ص١٦١

(٣) ابن مالك ، المصباح ، ص١١٤ .

(٤) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص١٠٩، أبو جعفر الأندلسي، طراز الحلة وشفاء الغلة، ج١٤٢/٢.

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٩.

(٦)السيوطي ،المصدر السابق، ص١١٠ .

(٧) القزويني ، التلخيص ص١٦٥ .

واحدةً فاختلفوا، ولولا كلمةٌ سَبقتْ مِنْ رَبِّكَ لقُضِيَ بينهم فيما كانوا فيه يختلفون) (يونس/ ١٩).

ثانيهما: أن تكون دلالة معنوية كقوله تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) (آل عمران/٣٣).

وأشار السيوطي إلى أن بعض البلاغيين يسمى القسم المعنوي من الإرصاد توشيحاً ومنهم ابن مالك والعسكري وغيرهما [١].

وتكلم على (المشاكلة) لغةً، وحدها واصطلاحاً ناقلاً عن القزويني قوله: هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديراً [٢]. ومثَّل للتحقيقي بقوله تعالى: (تعلم ما في نَفسي ولا أعلم ما في نفسك) (سورة المائدة/الآية ١١٦)، وقول الرسول عليه السلام :"خذوا من الاعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا" وأما التقديري فمثاله قوله تعالى" صبغة الله " (سورة البقرة/ الآية ١٣٨).

وأضاف تنبيها مفاده أن الغالب تأخير اللفظ الذي تقع به المشاكلة مما يشاكله وقد يتقدم ذلك اللفظ ومثل له بقوله تعالى: (فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (البقرة/١٩٤).

وعن (المزاوجة) ذكر السيوطي أنها تسمى (الازدواج) وحدها قائلاً:" وأصله اقتران الشيئين أن يؤتى في كل واحد من الشروط والجزاء بأمرين مزدوجين" [٣].

وألمح إلى الحالة التي يكون فيها الشرط مزدوجاً دون الجواب فإنه لا يسمى بذلك .

أما (العكس) فأشار إلى أنه يسمى التبديل وعرَفه بأن يقدّم في الكلام جزء ثم يؤخر كقولهم: "عادات السادات سادات العادات" [٤].وقسمه إلى أقسام:

الأول: أن يقع بين أحد طرفي جملة وما أضيف إليه.

والثاني: أن يقع بين لفظين في طرفي جملتين اسميتين نحو قوله تعالى: (لا هنَّ حِلٌّ لهم

---

(١) ابو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص ٣٩٧ . ابن مالك ، المصباح ،٩٠٨ .

(٢) السيوطي ، شرح عقود الجمان ص ١١٠ .

(٣) السيوطي ، المصدر السابق ص٢٢٢، السيوطي شرح البديعية، ص١٧٧.

(٤)السيوطي، شرح العقود، ص٢١١، السيوطي، شرح البديعية، ص١٠٦.

ولاهم يَحلُّون لهن) (سورة الممتحنة/الآية ١٠).

والثالث :أن يقع بين متعلقين في جملتين، كقوله تعالى: "يُخرجُ الحيَّ مِن الميِّت ويخرج الميت من الحي" (سورة الروم/ الآية ١٩) وذكر أنه قد يقع بين اسمية وفعلية كقوله عليه السلام: (لست من ددٍ ولا ددٍ مني) [١].

وتناول السيوطي (الرجوع) فحده بقوله: أن يرجع المتكلم عن الكلام السابق بالنقض بأن ينفي مثبتاً أو يثبت منفياً وإنما يكون لنكتة، وإلا فهو كذب [٢]، ومثل له بقول زهير :

قف بالديار التي لم يعفها قدم   بلى وغيرها الأرواح والديم

وجعل السيوطي "السلب والإيجاب" ملحقاً بالعكس مثل الرجوع، وعرفه بأن يبني المتكلم كلامه على النفي وإثباته من جهة وإثباته من جهة أخرى [٣].

ووقف السيوطي عند مصطلح " التورية " وسماها " الإيهام " وحدها قائلاً :"أن يذكر لفظ له معنيان إما بالاشتراك أو التواطؤ أو الحقيقة أو المجاز، أحدهما قريب والآخر بعيد، ويقصد البعيد ويوري عنه بالقريب فيتوهمه السامع في أول وهلة[٤].وأخذ على القزويني تقصيره في بحث التورية إذ قسمها إلى مجردة ومرشحة[٥]، ورأى أنها أعظم أنواع هذا الفن وأجله مستشهداً بقول الزمخشري وتعقيب ابن حجة [٦].

وذكر متابعاً لهما أنها تقسم إلى أربعة أقسام: مجردة ومرشحة ومبينة ومهيأة فالمجردة هي التي لم يذكر فيها شيء من لوازم المورى ولا المورى عنه. كقول تعالى: "الرحمن على العرش استوى " (سورة طه/الآية ٥) .

وأما المرشحة فهي التي يذكر فيها لازم المورى به قبل لفظ التورية أو بعده، ومن ذلك قوله تعالى: "والسماء بنيناها بأييد" (الذاريات/٤٧).

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان ص١٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ص١٦٦ .

(٣) المصدر نفسه ص١٦٧ .

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٣ .

(٥) القزويني، شرح التخليص ص١٦٧ .

(٦) ابن حجة، الخزانة ص٣٥٩ .

وأما المبينة فهي ما ذكر فيها لازم المورى عنه قبل أو بعد ، سميت بذلك لتبين المورى عنه بذكر لازمه إذ كان قبل ذلك خفياً أنه المعنى فلما ذكر لازمه تبين.

وأما المهيأة فهي ما لا تقع التورية فيه ولا تتهيأ إلا بلفظ قبلها أو بعدها أو تكون التورية في لفظين لولا كل منهما لما تهيأت التورية [١].

وحري بالذكر هنا أن السيوطي تابع في كل ما سبق ابن حجة ناقلا عنه التعريفات والشواهد والتعليقات مع اختلاف العبارة أحياناً وبالنص في أحيان أخرى [٢].

ثم ذكر السيوطي سبعة تنبيهات تتناول التورية وما دار حولها من أحكام كان منها: أن ليس كل لفظ مشترك بين معنيين تتصور فيه التورية، وكذلك أنه تتداخل أحياناً أنواع من الاستعارة مع التورية كما أن هناك فرقاً بين التورية واللغز [٣].

وعرض السيوطي لـ "الاستخدام" وذكر له تعريفين أولهما على طريقة السكاكي وأتباعه وهو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً به أحد هما ثم يؤتى بضميره مراداً له المعنى الآخر [٤]، وذلك كقول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم   رعيناه ولو كانوا غضابا

وثانيهما على طريقة بدر ابن مالك وهو أن يؤتى بلفظ مشترك ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ومن الآخر الآخر.

ولعلنا نكتفي بما عرضنا من أمثلة لمنهج السيوطي في عرض المادة البديعية من خلال تناولنا لبعض مصطلحاتها المتداولة بين البلاغيين وسنقف عبر هذه السطور عند المحسنات البديعية المعنوية التي زعم السيوطي أنه اخترعها ولم يسبقه إليها سابق ، ومن هذه المحسنات :

التأسيس والتفريع :

لقد نوه السيوطي بهذا النوع ، وأشار إلى مصدر الوقوع عليه فقال: هذا نوع لطيف اخترعته لكثرة استعماله في الكلام النبوي ولم أر في الأنواع المتقدمة ما يناسبه فسميته بالتأسيس والتفريع [٥].

---

(١) السيوطي، شرح عقود الجمان ص١١٤ .

(٢) ابن حجة، الخزانة ص٣٥٣-٣٥٤ .

(٣) السيوطي المصدر السابق ص١١٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص١١٦ .

(٥) ا المصدر نفسه ص١٤٠ .

والملاحظ هنا أن السيوطي قد اخترع المصطلح الدال على هذا المحسن المعنوي فقط، فإن شواهده كثيرة جرت به أحاديث نبوية شريفة، وأيا كان الأمر فهو يحد هذا النوع ويعرفه قائلاً: وذلك أن يمهد قاعدة كلية ثم يرتب عليها المقصود [(١)].

ونلحظ أن هذا التعريف على إيجازه يبين أن هذا النوع يستند إلى تعبيرين من فن القول أحدهما عام وأصل وثانيهما خاص يعود إلى هذا العام وفرع ينبت عن الأصل ، ولقد أورد السيوطي تسعة وعشرين حديثا نبويا شريفا لإيضاح هذا المحسن وتفصيل خصائصه[(٢)]، منها قوله عليه السلام: "لكل دين خلق وخلق هذا الدين الحياء" وقوله: "لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم" ويمكنني القول إن هذا المحسن ممكن رده إلى ضرب من ضروب المعاني الذي هو ذكر الخاص بعد العام، أو شيء متفرع منه، ولذا فإن ذكره هنا من باب الزيادة في التقسيم يمكن الاستغناء عنه والتنويه عليه في بابه من علم المعاني.

نفي الموضوع :

يبتدئ السيوطي حديثه عن هذا المحسن المعنوي بالإشارة إلى ماله فيه فقال: هذا النوع أيضاً من اختراعاتي وسميته نفي الموضوع وهو كثير، وبعد هذا حده فذكر "بأن كون اللفظ موضوعا لمعنى فيصرح بنفيه عنه ويثبته لغيره مبالغة في ادعاء ذلك الحكم له[(٣)].

وفي ضوء هذا الحد وشواهده ربما يكون هذا المحسن من موضوع القصر والحصر الإضافي، فما ينقله السيوطي من شواهد يجري في هذا المفهوم كقول الرسول عليه السلام: "ليس الغنى عن كثرة المال ولكن الغنى غنى النفس" ففي هذا الشاهد نفي وإثبات.

---

(١) السيوطي شرح عقود الجمان ، ص١٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٤١ .

(٣) المصدر نفسه ص١٤٢ .

تمهيد الدليل :

وعرفه بقوله : أن يقصد الحكم بشيء فيرتب له أدلة تقتضي تسليمه قطعاً بأن يبدأ بالمقصود ويخبر عنه بجملة مسلمة ثم يخبر عن تلك الجملة بأخرى مسلمة فيلزم ثبوت الحكم للأول بأن يحذف الوسط ويخبر الأخير عن الأول.[1] ومن شواهده قوله عليه السلام : " لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا "، إذ يصح أن يحذف الوسط فيقال : لا تدخلوا الجنة حتى تحابوا .

واعتذر السيوطي لقرائه بأن هذا الأسلوب من أساليب المناطقة، وأهل السنة لا يتبعونهم ، لكن هذا الأسلوب يعد طبعاً لأهل الذوق والذكاء " والقرآن والسنة طافحان باستعماله[2] " ولهذا جاز استعماله عند البلغاء .

التصحيف :

لقد بين السيوطي طبيعة هذا المحسن واختراعه إياه فقال : " هذا نوع رابع اخترعته وهو أن يأتي في المقصود بكلام لتصحيفه معنى معتبر ، فيقصد ذلك لتذهب نفس السامع إلى كل من معنييه ، كما حكي عن بعض الأذكياء أنه كتب إلى بعض أصحابه أن يشتري له من البضائع الرائجة ، وأمر أن لا ينقط ليصلح للرائجة والرابحة[3]".

وواضح أن هذا المحسن لا يكشف لنا عن محسن معنوي ذي قيمة بلاغية وإنما هو أقرب ما يكون إلى التمحل في تفريع أنواع البديع والمبالغة في الإكثار من أنواعه .

ولعلنا نلمح في هذا الحرص على اختراع المحسنات البديعية وتفريعها تحول البلاغة العربية في ذلك الوقت من علم وفن يعتمد على النصوص الأدبية في استنباط قواعدها وضوابطها إلى نظر علمي متمعن يقرر النوع ثم يلتمس له شاهدا أيا كان نوع هذا الشاهد ورسوخه في فن القول .

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ص١٤٢ .

المحسنات اللفظية :

اجتهد السيوطي في حصر مادة بحثه للنوع الثاني من أنواع البديع ، فجمع مـــادة وفيرة من المصطلحات البديعية ، اتفق في كثير منها مع من سبقه وأضاف شيئا من عنده واختلف معهم في تسمية بعض المصطلحات .

وقد بحث السيوطي في المحسنات اللفظية نوعين رئيسين هما الجنـــاس والســجع وألحق بهما العديد من المحسنات اللفظية ، حتى بلغت أقسام الجناس عنده أربعمائة نـــوع في كتابه (جنى الجناس) ونافت أقسام المحسنات اللفظية مجتمعة عن الستين في عقوده " و "بديعيته" .

ولن أقف في هذا المقام عند كل ما ذكر من محسنات لكنني سأكتفي بالوقوف عند بعض الأنواع الرئيسة للجناس والبديع وبعض المحسنات التي ذكر السيوطي أنه تفرد في بحثها واخترعها ، محاولاً من ذلك بيان منهجية الطرح والتناول عنده .

ففي (الجناس) كرر السيوطي تعريف القزويني – مع اختلاف اللفظ – فقال: هو تشابه اللفظين في اللفظ [1]" ثم ذكر أهمية الجناس وفائدته نقلاً عن السبكي ، وأبي جعفر الأندلسي الذي صرح بأن الجناس من أشرف الأنواع اللفظية .

وذكر أن للجناس أقساما كثيرة أولها [2]: " التام ، وعرفه بأن يتفقـــا فـــي أعـــداد الحروف وأنواعها وترتيبها وهيئاتها " . وأدرج تحته أقساما عدة منها (المماثل) ومثـــل له بقوله تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ســـاعة) (ســـورة الروم ، آيه ٥٥) ، وجعل منه (المستوفى) كقوله عليه السلام :(إنك لن تنفـــق نفقـــة تبتغي بها وجه الله ....) ، ومنه (جناس التركيب) الذي ينقسم إلى ملفوف ومرفو ومثل له بقول الشاعر :

عضنا الدهر بنابه   ليت ما حل بنا به

وجعل منه كذلك (الجناس التام الملفق) وأشار إلى أنه من زيادته [3].

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ص ١٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٤ .

وثاني أنواع الجناس عنده " ما وقع الاختلاف في هيئات الحروف " ومنه "المصحــف" أو "جناس الخط " [١] وهو ما اختلفت فيه الحروف بالنقط كقوله تعالى : (الذي هو يطعمنــي ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين) (الشعراء/٧٩-٨٠) وذكر منه المحرف وهو ما وقع الاختلاف فيه في الحركات .

وجعل ثالث أنواع الجناس (الناقص) وعرفه بأن يختلفــا في عدد الحروف [٢].

وذكر أنه قسمان : ما يقع الاختلاف بحرف واحد وهو مردوف ومكتنف ومطرف ومثل له بقوله تعالى (والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئــذ المســاق) (القيامــة/٢٩)، وقولهم: جدي وجهدي ،وقوله عليه السلام: (من آوى ضالّة فهو ضال) .

والثاني : ما يقع الاختلاف بأكثر أنواع الجناس فهو يذكر النوع الرئيس فيعرفــه ويحده ثم يتناول تفريعاته التي تمتد وتقصر بالقدر الذي تحتملــه جملــة التعريــف مــن احتمالات ويضمن ذلك مجموعة من الشواهد والأمثلة .

ولعلي اكتفي بالإشارة إلى المصطلحات الجناسية التي بحثها السيوطي في (شــرح العقود)دون دخول بتفصيلات بحثه ، على أن أقف عند بعض المصطلحات التــي زعــم أنها من مخترعاته وزيادته.

فقد بحق السيوطي تجنيس التصريف ومنه "المضارع " و" اللاحق " و "الجنــاس المعنوي" على أنه من زيادته ولم يشر إليه عند القزويني وابن رشيق وابن المنقذ، وألمح إلى أنه قد ذكره بعضهم دون أن يصرح بذكر أسمائهم [٣].وذكــر أنــه علــى نوعيــن : "تجنيس إضمار" و "تجنيس إشارة" الذي يسمى أيضا (تجنيس الكنايــة) وذكــره الفخــر الرازي والطيبي .والسيوطي في حديثه عن الجناس إنما يتابع ابن حجة الحموي أذ ذكــر حدوده وشواهده [٤].

وذكر السيوطي أن للجناس أقساما أخرى باعتبارات أخر ، ذكر منها (المزدوج) ويسمى (المكرر) أيضا : وهو أن يتوالى متجانسان [٥].و(المجنح) وهو أن يقــع أحــد المقلوبين أول البيت والآخر آخره[٦] .

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان، ص١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٥ .

(٣)المصدر نفسه ص١٤٧ .

(٤) ابن حجة ، خزانة الأدب ص ٤١-٤٣ .

(٥) السيوطي ، المصدر السابق ص١٤٧ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٤٧ .

و (المُشوّش) وهو تجنيس يتجاذبه الطرفان من الصنعة كقولك (مليـــح البلاغـــة أنيـــق البراعة[١]) .

ونبه السيوطي في ختام حديثه عن الجناس إلى أن الجناس نوع متوسط في البديع ليس كالتورية والاستخدام والطباق ونحوها ، وقال : " إنهم اتفقوا على أنما يحسن إذا قل ، فإن كثر سجع وخرج إلى حد النزول بخلاف التورية" [٢].

وهكذا جاء الجناس عند السيوطي في " عقود جمانه " ورغم أن السيوطي دار في فلك " التلخيص " للقزويني إلا أنه أضاف العديد من الزيادات على بحثه كان منها : جعله الجناس التام أربعة أقسام مضيفا ما أسماه " الملفوف " ، وكذلك بحثه للجنـــاس المعنـــوي والجناس المشوش وغير ذلك من الزيادات التي وصلت للسيوطي من خـــلال قراءاتـــه ومواكبته لحركة التأليف البلاغي حتى عصره .

ويبقى القول إن السيوطي أفرد للجناس كتاباً خاصاً – كما أشرنا سالفاً – خصصه لتناول أقسام الجناس وتفريعاتها مستخدما منهج الاستقراء للتعرف علـــى عنـــاصر هـــذه الظاهرة فجاء كتابه جامعاً لكل ما قيل حول الجناس وما يمكن أن يحتمله البحث من تفريع فقد وصلت أقسامه في هذا الكتاب إلى أربعمائة قسم تندرج تحت ثلاثة عشر نوعـــاً هـــي التام المفرد ، التام المركب ، المغاير ، المصحف ، المخـــالف ، المطمـــع ، الـــترجيع ، الجناس اللفظي ، المقارب ، المطلق ، المشوش ، الجناس المعنوي.

وهو يعرض لتعريف النوع وذكر أقسامه وتوضيحها ثم يشرع بذكر الشواهد عليه مـــن آي وحديث ونثر وشعر ، هذه الشواهد التي تتعدد وتكثر حتى تبلـــغ المئـــات وتســـتغرق عشرات الصفحات ، حتى يمكن عد الكتاب كتابا لحصر الشواهد والأمثلـــة التـــي وردت على أقسام الجناس ، فهو يفاخر بتتبعها وبقدرته على استنباطها الأمر الذي لم يـــأت بـــه الآخرون ، ولقد أضفت هذه الخطوة ميزة جيدة للكتاب إذ أشرب البحث الجامد للجنـــاس لوناً فنياً وطابعاً أدبيا خفف من جفاف التقسيم وجموده .

وقد تابع السيوطي حديثه عن المحسنات اللفظية فذكر منهـــا :

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ص١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٨ .

- رد العجز على الصدر : الذي يسميه البعض " التصدير " وهو في النثر : أن تقع اللفظة أوله ومثلها أو مجانسها أو الملحق بها آخره[١] كقوله تعالى : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) (الأحزاب/٣٧) .

وفي الشعر يكون أحد اللفظين في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الثاني[٢] .

- وكذلك " التسبيغ " وهو أن يعاد لفظ القافية في أول البيت الذي يليها أما "التطريز " فهو أن يبتدئ بذكر جمل من الذوات غير منفصلة ثم يخبر عنها بصفة واحدة مكررة بحسب العدد الذي أتى به. [٣]

"والتعديد " بأن يوقع أسماء مفردةَ على سياق واحد ، فإن روعي فيه طباق او جناس أو ازدواج أو مقابلة فهو الغاية في الحسن [٤]. كقوله تعالى : " ولَنَبلُوَنَّكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ " (البقرة/١٥٥) .

وذكر التنسيق وسماه في البديعية "حسن الاتساق" وعرفه بأنه الإتيان بجمل متلائمة معطوفة عطفاً متلاحماً مستحسناً [٥].

وتوقف السيوطي ملياً عند "السجع" وأشار إلى حده عند أهل الفن وهو" تواطؤ الفاصلتين على حرف واحد " [٦] ، وناقش مسألة تقبيح بعض العلماء له ، ورجح الآراء التي تطري السجع وتشيد بحسنه كما اختار ضمنيا الرأي القائل بوجود السجع في القرآن[٧].

وتناول بعد ذلك أقسام السجع فذكر المطرف والمتوازي والمرصع والمصرع والمماثلة والموازنة وهو في بحثه لهذه المصطلحات كان متابعا القزويني في الحدود والشواهد مع دعم لرأيه بآراء آخرين مثل ابن حجة الحموي والطيبي وغيرهما [٨].

---

(١) السيوطي شرح عقود الجمان، ص١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٤٨ .

(٣) المصدر نفسه ص١٤٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص١٤٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص١٤٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ص١٥٠ .

(٧) المصدر نفسه ، ص١٥٠ .

(٨) المصدر نفسه ،ص ١٥٠-١٥١ .

وأشار السيوطي إلى "التشطير" وفيه يقع السجع في النظم وهو أن يجعل لكل من شطري البيت سجعتين متفقتين في الروي [١]

وكذا مثله "التسميط " لكنه يكون بتشابه السجعات في البيت ، وذكر السيوطي أنه من زيادته ، وقد ورد عند ابن حجة الحموي [٢]. وأشار السيوطي إلى أن ابن مـتت سلك فيه طريقة أخرى فقسمة إلى تسميط وتقطيع وتبعيض ، والحق أن ابن مالك قسم التسميط إلى قسمين : أحدهما : تسميط التقطيع ، وثانيهما : تسميط التبعيض [٣].

ونبه السيوطي إلى مصطلح " التجزئة " من زيادته وعرفه متابعا ابن حجة فقال : "وهو أن يأتي ببيت ويجزئه جميعه ويسجعها جميعها على وزنين مختلفين جزءاً بجزء أحدهما على روي يخالف البيت والثاني على روي البيت" [٥] وقوله " يسجعها " يعود على كلمتين أسقطها السيوطي من تعريف ابن حجة وهما: " أجزاء عروضية " .

وذكر السيوطي مصطلح " الانسجام " على أنه من زيادته وعرفه " بأن يكون الكلام لخلوه من العقادة كانسجام الماء في انحداره ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة " [٤] وأشار إلى أن غالب ما يأتي الانسجام باستخدام أنواع بديعية دون قصد ، وفي النثر غالبا ما تكون قراءته موزونة بلا قصد. ومثل له بآيات من القرآن الكريم جاءت موزونة على مختلف بحور الشعر العربي مثل قوله تعالى :" فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " سورة الكهف آيه ٢٩ " الذي جاء فيه على وزن البحر الطويل [٦].

وأشار السيوطي في حديثة عن "القلب" إلى أنه يسمى المقلوب المستوي وما لا يستحيل بالانعكاس ، وهو أن يكون عكس البيت كطرده أي يقرأ بعكس حروفه من الآخر إلى الأول وبالعكس [٧] . ومثل له بقوله تعالى : " وربك فكبر " (المدثر /٣)

---

(١) السيوطي شرح عقود الجمان،١٥٢ .

(٢) ابن حجة ، خزانة الأدب ص٤٣٤ .

(٣) ابن مالك ، المصباح ص ٧٩- ٨٠ .

(٥) السيوطي ، المصدر السابق ص١٥٣ ، ابن حجة المصدر السابق . ص٤٣٥ .

(٤) السيوطي ،المصدر نفسه ، ص١٥٣ .

(٦) المصدر نفسه ص١٥٣

(٧) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

وانتقل من الحديث عن " القلب " إلى الحديث عن " لزوم ما لا يلزم " وذكر أنــه يسـمى الالتزام والاعنات"، وهو عنده : " أن يلتزم الشاعر أو الناثر حرفاً قبل الروي " [١] ومثل له بقوله تعالى: " فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس " (التكوير/ ١٥-١٦).

وذكر أنه اخترع محسنا سماه " التضييــق " وهــو أن يلــتزم بــالروي أمــراً لا يلزم[٣]والمح إلى أن البلاغيين لم يذكروه لظنهم أن الروي يلزم أن يكون علــى حـرف واحد فلا يقع فيه التزام ما لا يلزم.

وواضح أن هذا المحسن ليس إلا استمراراً لمصطلح " لزوم ما لا يلزم " وليس فيه ثمة إبداع باستثناء أختلاق الاسم .

واستمر السيوطي بذكر المحسنات اللفظية زيادة على ما جاء في التلخيص فذكــر التخيير والتمكين وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف اللفظ مع الوزن والطاعة والعصيان والحذف ، وهو فيها جميعها يورد حد المصطلح ويستشهد له ببيت من الشــعر ، وهــي مصطلحات في غالبها خالية من الفنية والبلاغية وليست إلا مجــرد مماحكــة لفظيــة أو تمرين عقلي.

وقد أشار السيوطي إلى أهمية المعنى في البديع فذكر فــي خاتمــة حديثــه عــن المحسنات اللفظية : " إن أصل الحسن في الأنواع اللفظية أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني لا أن تكون المعاني تابعة للألفاظ بأن يؤتى بألفاظ متكلفة مصنوعة المعنى كما يفعله مــن له شغف بإيراد المحسنات اللفظية. فيجعل الكلام كأنه غير مسوق لإفادة المعنى ولا يبالي بخفاء الدلالة وركاكة المعاني فإذا تركت المعاني على سجيتها طلبت لانفسها ألفاظاً تليــق بها وعند ذلك تظهر البلاغة ويتميز الكامل من القاصر" [٣].وهو بهذا يعبر عــن نظــرة نقدية مميزة تعطي للبديع رونقه المميز .

وأيا كان الأمر فإن السيوطي فيما تتبع من المحسنات اللفظية التي عرفناها مضى على منهجه الاستقرائي ، فجمع كل ما تناهى إليه ونقله نقلا مع إضافات شــكلية ســماها

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ص ١٥٤ .

(٣)المصدر نفسه ص ١٥٤ .

(٣)المصدر نفسه ، ص ١٥٧ .

زيادات تارة، ومخترعات تارة أخرى .

وغني عن الذكر أن السيوطي وكثيراً من البلاغيين قد انحرفت أقلامهم في تناول البديع عن المنهج التحليلي الذوقي الذي اعتمده عبد القاهر الجرجاني وطائفة من اللغويين والبلاغيين السابقين من أمثال ابن قتيبة والمبرد والجاحظ .

وليس أدل على ذلك من قول الجرجاني : " وقد نجد في كلام المتأخرين كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء " [١].

فالجرجاني فيما ذهب إليه ينص على "المنشئين الأدباء" ، فكيف بالسيوطي الباحث إذ تكلف في التفريع والتقسيم واختراع المحسنات التي لاجدوى من ورائها دون كشف عن أثر هذه المصطلحات وفنيتها ، لأن المحسنات البديعية إن أفرغت من مضمونها المعنوي والجمالي تحولت إلى غمغمات من الجرس والنغم قد تؤدي إلى إلغاء دور اللغة في الإفهام والتفهيم وتجعل القول تكراراً لفظياً لا طائل تحته.

وأورد السيوطي في ختام بحثه للبديع بديعية "ابن حجة الحموي" التي مطلعها:

لي في ابتدا مدحكم يا عرب ذي سلم   براعة تستهل الدمع في العلم

وعلل اختياره لهذا البديعية أن كل بيت منها شاهد لنوع بديعي ، ولاشتمال كل بيت منها على تسمية النوع الذي فيه على سبيل التورية[٢] .

---

(١) الجرجاني : أسرار البلاغة ص٩ .

(٢) السيوطي ، شرح عقود الجمان ، ص ١٥٧ .

خاتمة في السرقات الشعرية :

أنهى السيوطي بحثه في البلاغة العربية في كتابه " عقود الجمان " بحديث نقدي شاع بين النقاد وتوزعوا فيه على مشارب متعددة ألا وهو " السرقات الشعرية " فرأى أن الاتفاق في الغرض العام وفي وجه الدلالة على الغرض من مجاز تشبيه وغيره وكون هذا الوجه مشتركا بين الناس مستقراً في العقول ، لا يعد سرقة ولا أخذاً ولا استعارة[١] .

فإن لم يشترك الناس في معرفته جاز أن يدعي فيه السبق والتفاضل بالزيادة والنقص وهو على نوعين :

الأول : خاص في نفسه غريب وهو الإبداع .

الثاني : عام تصرف فيه بما أخرجه من الابتذال إلى الغرابة [٢].

ومثل الأول بقول ابن الرومي في تشبيه الرقاقة :

إن أنس لا أنسى خبازاً مررت به   يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة   في صفحة الماء يلقى فيه بالحجر

ومثل للثاني بقول القاضي الفاضل :

تراءى ومرآة السماء صقيلة   فأثر فيها وجهه صورة البدر

ثم ذكر أن الأخذ والسرقة نوعان :

الأول: ظاهر: وهو أخذ المعنى كاملا ، فإن كان بلفظه كله فهو مذموم ويسمى نسخاً وانتحالاً وإن كان مع تغيير وأخذ بعض اللفظ سمي إغارةَ ومسخاً.

الثاني: غير ظاهر وهو أنواع منها تشابه المعنيين ، وكذلك نقل المعنى إلى محل أخر ويسمى التوليد .

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ص١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص١٦٣ .

وهذا النوع الثاني مقبولة(السرقة) لما فيها من نوع تفرق [١].

والسيوطي في كل ما سبق تابع للقزويني بتقسيماته وشواهده[٢] مع زيادة في التمثيل .

وتمم بحثه للسرقات الشعرية بأنواع بديعية لها اتصال بالموضوع فتحدث عن الاقتباس وعرفه بأن يضمن المبدع نثره أو شعره ما وقع في القرآن أو السنة موزوناً لا على أنه منه [٣].

ووقف عند مسألة جواز هذا الفن شرعاً فذكر آراء العلماء في ذلك من محرم ومحلل ومفصل لأنواعه حلالها وحرامها ومباحها واختار ضمنا جواز استخدامه [٤].

ثم انتقل للحديث عن التضمين فحده بأن يضمن الشاعر شيئاً من شعر الغير مع التنبيه على أنه من شعر الغير إن لم يكن مشهوراً [٥] ، وجعل منه الاستعانة والتفصيل .

وبحث في هذا المقام مصطلح " العقد " بأن ينظم نثراً قرآناً أو حديثاً أو مثلاً لا على طريق الاقتباس .

أما " الحل " فهو ضد العقد ويكون بنثر النظم شريطة حسن السبك وحسن الموقع .

وفي " التلميح " أشار إلى خطأ القزويني بتسمية هذا النوع "التمليح" لأن ذلك من الملاحة وهو في باب الاستعارة والتشبيه ، وأما الذي هنا فبتقديم اللام من " لمحه إذا نظر إليه وهو أن يشير في الكلام إلى قصة أو شعر أو مثل من غير ذكره[٦] ومثل له بقول أبي تمام :

فردت علينا الشمس والليل راغم ... بشمس لهم من جانب الخدر تطلع

فو الله ما أدري أأحلام نائم ... ألمت بنا أم كان في الركب يوشع

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ص١٦٥ .

(٢) القزويني ، شرح التلخيص ، ١٩٨-١٩٩ .

(٣) السيوطي ، المصدر السابق ١٦٦

(٤) المصدر نفسه ، ص١٦٥ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٦٩ .

(٦) المصدر نفسه ص١٧١ .

وأشار في ختام كتابه إلى ضرورة التأنق في ابتداء الكلام وذلك لأنه أول ما يقرع السمع ، فإن كان محررا أقبل السامع على الكلام ووعاه وإلا أعرض عنه .

وجعل من حسن الابتداء " براعة الاستهلال [١]" وأكد على ضرورة التأنق في التخلص مما ابتدأ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا رقيقا دقيق المعنى.

وذكر أن من مواضع التأنق في الكتابة ما يسمى ب"براعة المطلب " ويكون بالخروج إلى الكتابة الغرض بعد تقدم الوسيلة[٢] كقوله تعالى " إياك نعبد وإياك نستعين" (سورة الفاتحة آية ٤) .

وانتهى من ذلك كله إلى الإشارة إلى أن جميع سور القرآن في فواتحها وتخلصاتها وخواتمها واردة على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها من الفصاحة والبلاغة .

---

(١) السيوطي ، شرح عقود الجمان ص ١٧٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .

وبعد...؛

فإن معاودة النظر فيما تقدم من جهد بلاغي للسيوطي في كتبه المتخصصة لتؤكد لنا الحقائق التالية:

أولاً: خروج السيوطي عن اتباع المنهج القزويني حرفياً، إذ إنه كان لا يفوت فرصة في توسيع أفق المادة القزوينية من خلال ما وصلت إليه قراءاته في كتب البلاغة التي ألفت حتى عصره.

وهو في ذلك يبني على جهد القزويني ما يشعر أنه يُكمِّل ما بدأه، ويسد نقصه وصولاً إلى صورة كاملة عن البلاغة.

ثانياً: نقل السيوطي عن علماء وباحثين تتنوع اختصاصاتهم بين الدراسات القرآنية والمباحث المنطقية، والقضايا البلاغية تأليفاً وتلخيصاً وشرحاً. ومن أبرزهم: (عبد القاهر الجرجاني، وفخر الدين الرازي، والسكاكي، والطيبي، والسبكي، وابن مالك، والزمخشري ...... وغيرهم).

وقد كان في نقله أميناً، وموضوعياً، إذ ردّ نقوله إلى أصحابها بدقة وذلك بالنص على اسم الذي أخذ عنه أو ذكر المصدر.

ثالثاً: أورد السيوطي اختياراته من الآراء بين يدي قرائه دون اختيار أو ترجيح في غالب مباحثه، كما كان يدلل على صحة الاختيارات التي يقتنع بها.

رابعاً: نوّع السيوطي في الأمثلة التي اختارها شواهد لمباحثه فجاءت موزعة بين القرآن الكريم والحديث الشريف والأمثلة المصنوعة. ووقف عند بعض شواهده محللاً ومبرزاً بيانية الشاهد وفنياته.

خامساً: أبرز السيوطي في كثير من موضوعاته البلاغية، القيم الفنية والآثار النفسية لها، بجانب تناوله لحدودها وماهيتها.

سادساً: وظف السيوطي معرفته الموسوعية في بعض مناقشاته للمادة البلاغية فهو يفكر تارة بعقلية النحوي وأخرى بعقلية عالم الحديث وثالثة بعقلية الفقيه فتتوجه من خلال

ذلك أمثلته وتبني أحكامه.

سابعاً: مال السيوطي إلى الشرح والإسهاب في مجمل ما بحثه في كتابه في محاولة لتقديم مادته بأبسط صورة وأيسرها.

ثامناً: رغم محاولة السيوطي تقديم عباراته بشكل متقن مفهوم، إلا أن عباراته تقصر – أحياناً – عن عبارة القزويني، فيعتورها شيء من الغموض مرده الإلحاح في طلب التفصيل والشرح.

تاسعاً: إن زيادات السيوطي على تلخيص القزويني، ومناقشاته للذين أخذ عنهم لم تكن في الأغلب تتعدى قضايا شكلية جانبية.

الفصل الثالث

البلاغة القرآنية عند السيوطي

كان للقرآن الكريم وعلومه نصيب وافر من مكتبة السيوطي التأليفية ، فقد تعددت مؤلفاته حوله من تفسير وقراءات وأسباب نزول وإعجاز ومفردات وغيرها من المباحث التي تتعلق به ، وكان لهذه المؤلفات حضور طيب بين الباحثين تميزت بالموسوعية والإتقان وجودة السبك .

واحتلت البلاغة وفنونها حيزاً واسعاً من مؤلفات السيوطي القرآنية ، وذلك للعلاقة الوثيقة بين معرفة كتاب الله حق المعرفة وبين هذه الفنون، ولقد ذكر السيوطي أن على من يتعاطى التفسير أن يتقن علوم البلاغة من معانٍ وبيان وبديع، وهي من أعظم أركان المفسر ، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز ولا يدرك إلا بهذه العلوم [(١)].

وهكذا اهتم السيوطي بعلوم البلاغة في هذا المجال باعتبارها منطلقاً للإحاطة بعلوم القرآن ، وليس باعتبارها مقصداً يرتجى منه تعليم البلاغة، فكان التركيز على الآثار التي يتركها المصطلح البلاغي في نفس المتلقي، والفائدة التي يجنيها استخدام هذا المصطلح في جسم النص القرآني.

وتميز البحث البلاغي لدى السيوطي عنده ببعده جزئياً عن الدائرة القزوينية التي وقع في إسارها في كتبه الأخرى مثل : عقود الجمان" و " إتمام الدراية " - كما بينا تفصيلاً فيما سبق [(٢)]- فقد اهتم بفنية المصطلح البلاغي وإبلاغيته دون توسع شديد في البحث عن تقسيمات المصطلح وتفريعاته وحدوده ، لكن هذا لم يمنعه من السير وفق معيارية البلاغيين السابقين في بعض مباحثه بتناول حدود الشيء من التفصيل ، وذلك مقدمة للوصول لأغراض الفنون البلاغية وآثارها .

فالسيوطي يقوم بتقديم المادة النظرية لمصطلحات البلاغة عند عرضه لآراء مجموعة من العلماء يوضح بها حدود هذا المصطلح ومفهومه ليصل من وراء ذلك إلى الأغراض التي يؤديها هذا المصطلح .

---

(١) السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ص ٢/٥٣٦.

(٢) ينظر الفصل الثاني من هذا البحث .

وهو يدعم ذلك بالكثير من الشواهد القرآنية التي يحرص على عرضها وتحليلها لبيان ما أفاده استخدام هذا الفن في ذلك الموضع ، فهو يوسع مدارك البحث البلاغي بما يحشده من شواهد .

ويبقى القول إن السيوطي في مسعاه لمعالجة البلاغة القرآنية يتلمس جانباً من جوانب الإعجاز القرآني الذي تشكل فصاحته وبيانيته وعجز المخلوقات عن الإتيان بمثله مفصلاً هاماً من مفاصل إعجازه ، ولهذا كان مقصد السيوطي بيان التوظيف القرآني لمصطلحات البلاغة العربية وإظهارها .

ولقد كتب السيوطي فيما يمكن تصنيفه تحت مظلة البلاغة القرآنية عدة كتب من أهمها: "فتح الجليل للعبد الذليل" و "تناسق الدرر في تناسب السور" و "التعبير في علم التفسير" و"معترك الأقران في إعجاز القرآن" و "الإتقان في علوم القرآن" وهذه الكتب تتنوع بين الموجز المختصر الذي يتناول مسألة واحدة ككتاب "فتح الجليل" الذي يدور حول آية قرآنية، وبين المفصل المتنوع كباقي الكتب التي تبحث قضايا قرآنية متنوعة .

ويمكن تصنيف البحث البلاغي في هذه الكتب إلى قسمين رئيسيين هما البلاغة التطبيقية والبلاغة باعتبارها جانباً من جوانب الإعجاز القرآني:

الأول : البلاغة التطبيقية

تبرز البلاغة التطبيقية في الكتب التي دارت حول استخراج الفنون البلاغية من نصوص معينة، وفيها وظف السيوطي مهارته البلاغية وسعة اطلاعه في استقراء النصوص واستنباط فنونها البلاغية .وقد اتخذ السيوطي ذلك وسيلة لإظهار براعته في الاستخراج وقدرته على الإتيان بما لم يأت به الآخرون ، وليس أدل على ذلك من رسالته المسماة: فتحُ الجليلِ للعبدِ الذليلِ " وفيها يقول السيوطي : "فقد وقع الكلام في قوله تعالى: "اللهُ وليُّ الذين آمنوا يخرجُهم من الظلماتِ إلى النورِ .." (البقرة/٢٥٧) وقررت فيها بضعة عشر نوعاً من الأنواع البديعية ، ثم وقع التأمل بعد ذلك ، ففتح الله بزيادة على ذلك حتى جاوزت الأربعين ثم قدمت الفكر فلم تزل تستخرج وتنمو إلى أن وصلت بحمد الله إلى مائة وعشرين نوعاً ، وقد أردت تدوينها في هذه الكراسة ليستفيد من له غرض

في الوقوف على أسرار التنزيل " [١].

وواضح كيف أضحت هذه الآية هما للسيوطي ولغزاً ما فتئ يفك أسرار بلاغته حتى لم يبق فيها متسع لقول .

ولعل مطالعة متمعنة لهذه الرسالة تكشف لنا عدة ملاحظات منها :

أولاً : إن السيوطي لم يقتصر استخراجه للفنون على أنواع البديع فحسب بل توسع في ذلك، فذكر مباحث من البيان والمعاني ومن ذلك الاستعارة في قوله تعالى: " يخرجهم من الظلمات إلى النور " فهي عنده من باب الاستعارة التخيلية المكنية ، مع جواز عدها استعارة تمثيلية[٢].

والتقديم والتأخير فهو يرى أن فيها ثلاثة مواضع للتقديم والتأخير[٣] ، والحقيقة والمجاز، إذ وجد فيها ثمانية مجازات [٤]. كما أشار إلى استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه معاً في أربعة مواضع [٥].

ويبدو أن السيوطي، وفي إطار حرصه على استخراج كل الفنون البديعية في الآية وسع مفهوم البديع ليشمل البلاغة بفنونها حتى لا تفوته الإشارة إلى أي فن بلاغي فيها .

ثانياً : حرص السيوطي على تقديم لمحة تعريفية لبعض الفنون التي يطرحها ، ومن ذلك تعريفه للاحتباس. وهو أن تذكر جملتين، وتحذف كل ما أثبت نظيره في الأخرى، وموضعه في الآية: بتقدير الله ولي الذين آمنوا؛ وهم أصحاب الجنة. والذين كفروا ليس الله لهم بِولَي وأولئك أصحاب النار، فحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني وهو أصحاب الجنة، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول وهو ولاية الله [٦].

وعرف كذلك الفرائد بقوله : "هي الإتيان بلفظة فريدة لا يقوم غيرها مقامها" ومثل لها بلفظتين :" الولي " و " والطاغوت " [٧].

---

(١) السيوطي ، فتح الجليل ، ص ١٥

(٢) المصدر نفسه ، ٣٧.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨.

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٧.

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٩

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٧.

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٨.

والإتساع : وهو أن يؤتى بكلمة يتسع فيها التأويل من مثل : الولي (١).

وعرف الإبداع والافتنان والنزاهة والاحتراس والبسط والانسجام وائتلاف اللفظ والمعنى والطرد والعكس والتمكين والتسهيم والتشريع والتهذيب والاستتباع والاستخدام.

وهو يقدم تعريفه بأسلوب وظيفي مبسط يخدم اختياره للفن البلاغي لذلك الموضع دون إسهاب أو تطويل ، لذا يمكن عدها مثالاً تعليمياً لتعليم البلاغة بالطريقة الاستنباطية التي تبدأ بالنص لتصل إلى القاعدة .

ثالثاً : لم يقف السيوطي عند حدود تعداد الفنون البلاغية وتقديم تعريف لها، وإنما تجاوز ذلك لبيان القيمة الفنية والإبلاغية لذلك الفن في موضعه، ومن ذلك ما قرره في "التفنن" حيث أورد قوله: "وفيها التفنن في ثلاثة مواضع أفرد "النور" وجمع الظلمات: لأن الإيمان واحد والكفر أنواع، وأفرد ولي المؤمنين لأنه واحد وجمع أولياء الكفار لتعدد معبوديهم"(٢).

ومنه كذلك ما أورده في "الفوائد" حين قال: "وهي هنا في لفظتين: الأولى "الولي" لأنه لا يقوم غيره مقامه، لما فيه من الإشعار بالخصوصية الزائدة ، والقرب المعنوي والمكانة والاعتناء بمصلحة المؤمن، فإن "الولي يطلق لغة وشرعاً على القريب وخلاف الأجنبي، ومن للمولى به صلة قرابة أو نظر أو وصاية أو نحو ذلك، ولفظة الناصر أو المعين أو المتولي مثلاً لا يفيد ذلك، لأن كلاً مما ذكر قد يكون غريباً أجنبياً، فأفاد بلفظة الولي أنه مراع مصلحة عبيده، كما يراعي الولي مصلحة محاجره والثانية: لفظة "الطاغوت" فإنها لا يقوم غيرها مقامها في الذم والقبح والبشاعة كما لا يخفى "(٣).

وبهذا يتوضح المصطلح البلاغي وتظهر جماليته من خلال ما يؤديه من دور داخل سياقه الأدبي .

رابعاً : ذكر السيوطي أنه استخرج من الآية ما مجموعه مئة وعشرون نوعاً بديعياً ، لكنه

(١) السيوطي ، فتح الجليل ، ص٢٩.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨.

في الحقيقة أورد خمسة وستين نوعاً مختلفاً في مئة وعشرين موضعاً، حيث تكررت أنواع بعينها بتعدد مواضعها من مثل الطباق في ثلاثة مواضع والحذف في موضعين والتغليب في أحد عشر موضعاً وغير ذلك .

كما أن السيوطي في رسالته هذه كان أقرب لإظهار المقدرة البلاغية وسعة الاطلاع والمعرفة . فهو يمرن عقله باستنباط أكبر قدر من البلاغة في مساحة نصية ضيقة، وهي مهارة قد يرى فيها البعض نوعاً من التمحل وضرباً من الرياضة العقلية لا طائل تحته ولا فائدة من ورائه ، لكنها في حقيقة الأمر أكبر من ذلك ، وفيها من الإفادة والتعليم ما فيها من المهارة والإتقان .

ولعل من الكتب التي يمكن عدها من كتب البلاغة التطبيقية كتاب " قطف الأزهار في كشف الأسرار " وهو كتاب في التفسير تناول فيه السيوطي آيات القرآن الكريم بالشرح والتفسير وبيان ما في آياته من أحكام وشرائع وفنون من مختلف العلوم والمعارف .

وهو يقول عن كتابه: "وهذا كتاب شفعت به تلك، ونظمته معها في سلك ، في أسرار التنزيل، أذكر فيه جميع ما وصل علمي من كلام العلماء في النظم القرآني من أسرار التقديم والتأخير والتأكيد والحذف والإيجاز والإطناب ، والنكت البيانية والأنواع البديعية ، وأنبه على القراءات المختلفة المشهورة والشاذة ، وأبين مناسبة ترتيب السور والخفي من مناسبات الآيات إلى غير ذلك مما تراه من النكت والأسرار "(١).

وواضح من عبارته أنه يهتم بالأمور البلاغية وتجليتها على أنها وجه جلي من وجوه الإعجاز القرآني .

ولا يكاد السيوطي يترك في كتابه آية فيها ملمح بياني أو فن بديعي إلا وأشار إليه إما نقلاً عن غيره من العلماء أو اكتشافاً من تلقاء نفسه .

ويمكن تلمس ذلك من خلال هذه الأمثلة التي أسوقها شواهد على البلاغة التطبيقية في هذا الكتاب:

---

(١) السيوطي ، قطف الأزهار في كشف الأسرار ، ص ٩٨.

فمن ذلك قوله تعالى :" في قلوبهم مرض " [البقرة ، آية ١٠] استعارة للشك بجامع الفساد ، وحقيقته خروج المزاج عن الاعتدال [١].

وفي قوله تعالى: "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم"، [البقرة ، آية ١٦] استعارة مرشحة ، استعير الاشتراء للاستبدال والاختيار، ثم فرع عليه ما يلائم الاشتراء وهو الربح والتجارة [٢].

ومنه أيضاً ما أورده تعقيباً على قوله تعالى: "نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم ..." [البقرة، آية ٢٢٣] إذ قال: هو تمثيل باعتبار تشبيه المجموع من إتيان قبل المرأة أنى شاء بمجموع إتيان الأراضي، التي يراد حرثها من أي جهة كانت، فإن وجه الشبه إذا كان مجموعاً مأخوذاً من أمور يسمى تمثيلاً، أي جامعوهن من أي جهة أردتم، كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم [٣].

ولقي البديع ومباحثه اهتماماً خاصاً من السيوطي فقد حفل الكتاب بالأنواع الكثيرة منه وفق مواضعها في النص القرآني ومنه :

الاحتباك في قوله تعالى: "فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ..." [البقرة/٩٨] ، فقد حذف من الكلام الأول ما أثبت في الثاني ومن الثاني ما أثبت في الأول[٤].

والمزاوجة في قوله تعالى :" ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" [البقرة /٢١٧] حيث زاوج في الشرط بين الردة والموت عليها ، مرتباً عليها بالفاء ، وفي الجواب بين إحباط العمل والخلود في النار والثاني مرتباً على الأول [٥].

ومنه الطباق في قوله تعالى :" قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ..." [سورة الأعراف/١٥٦] وفيه طباق في أربعة مواضع [٦].

---

(١) السيوطي ، قطف الأزهار ، ص ١/١٩٠.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١/١٩٥.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١/٤٦١.

(٤) المصدر نفسه ، ص ١/٣٣٩.

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢/٤٥٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ١/١٠٥٧.

وهكذا يمضي السيوطي في ثنايا تفسيره يشير إلى المواطن البلاغية تارة إشارة موجزة وأخرى مسهبة يوسع فيها مدارك بحثه وصولاً بالقارئ إلى فهم كامل للآية.

ويبقى القول إن هذا التفسير يضم الكثير من التطبيقات البلاغية التي تصلح مداخل لتدريس مباحث البلاغة ، ويمكن الاستفادة منها في المناهج التي تسعى لتدريس البلاغة العربية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب لم يحظ بالدرس الكامل فقد تم تحقيق جزء منه يبلغ حتى سورة التوبة ، وبقي الجزء الآخر منه دون تحقيق بانتظار من يزيل عنه غشاوة الزمن ويظهره للمتلهفين للتواصل مع المعرفة السيوطية .

الثاني : البلاغة باعتبارها جانباً من جوانب الإعجاز القرآني

سعى السيوطي في هذا القسم إلى تقديم البلاغية وتجلية غوامضها وإظهار خصوصية الاستخدام القرآني لها باعتبار أنها من الأركان الهامة في مباحث علوم القرآن وإعجازه .

فهو لا يسعى هنا إلى طرح المادة البلاغية طرحاً تعليمياً يرنو إلى إنشاء المعرفة الكاملة حول البلاغة ومعانيها لدى دارسيها ، وإنما يشكل مادتها ويرسم معالمها مسلطاً الضوء على الجانب الجمالي الفني والإشراق الأسلوبي في توظيف فنونها خدمة للنص القرآني .

وكانت هذه الغاية سبباً في تحرر السيوطي نوعاً ما – من السيطرة السكاكية – القزوينة والانطلاق عبر فضاءات أرحب في تناول الفنون البلاغية ، فجاءت نقولاته واختياراته من معين العلماء والأدباء الذين يركزون على أدبية البلاغة ويحررونها من قوالبها الجامدة التي صيغت من خلالها ، وفي الوقت ذاته فهو لا يستغني عن نقولات من أرباب البلاغة ذوي الاتجاه الفلسفي .

وقدم السيوطي في هذا الاتجاه بحثاً ثَرّاً يستحق التوقف عنده والإلمام بمنهجيته وطريقة تناوله وإن كانت خطوطه العامة تتقاطع مع ما طرحه – وناقشناه سالفاً – في كتابه " عقود الجمان "، لكني سأحاول التوقف عند الملامح المميزة والسمات الخاصة

للبلاغة القرآنية التي تفترق بوجه ما عما طرح عنده من مباحث .

وقدم السيوطي بحثه للبلاغة القرآنية في كتبه " التحبير في علم التفسير " و"معترك الأقران في إعجاز القرآن" و "الإتقان في علوم القرآن " وتتناول هذه الكتب القرآن الكريم وعلومه من زوايا مختلفة، لكنها تتلاقى في مباحث كثيرة تلاقياً يقترب من درجة التماثل أحياناً ، وذلك لقرب الموضوعات التي يطرحها السيوطي في كتبه الثلاثة من بعضها ودورانها حول المحاور نفسها .

ففي كتابه "التحبير في علم التفسير" الذي يعد أوجز كتبه الثلاثة وأقدمها تأليفاً، سعى السيوطي إلى استكمال مباحث علم التفسير التي انتهت حتى عصره، إذ يقول : "وإن مما أهمل المتقدمون تدوينه حتى تحلى في آخر الزمان بأحسن زينة "علم التفسير" فلم يدونه أحد حتى جاء شيخ الإسلام جلال الدين البلقيني فعمل فيه كتابه " مواقع العلوم في مواقع النجوم " فنقحه وهذبه وقسم أنواعه ورتبه ، فإنه جعله نيفاً وخمسين نوعاً منقسمة إلى ستة أقسام وتكلم في كل نوع منها بالمتين من الكلام ... ، وظهر لي استخراج أنواع لم أسبق إليها وزيادة تتمات لم يستوف الكلام عليها فجردت الهمة إلى وضع كتاب أجمع فيه إن شاء الله شوارده ... "[١]، وقد بلغت عدة الأنواع والموضوعات التي بحثها السيوطي مئة ونوعين .

ولعل استجلاء الموضوعات التي طرحها السيوطي في كتابه يظهر أن تلك الموضوعات تتعلق بعلوم القرآن وبالأدوات التي يستعين بها المفسر في استخراج مكنونات القرآن الكريم وبيان إعجازه ودرره .

وكان مما يتعلق بالبلاغة من هذه الأنواع ما يلي: المجاز، الاستعارة، والتشبيه الكناية والتعويض،و العام الباقي على خصوصه، والمخصوص الذي أريد به الخصوص، المفهوم، والإيجاز والإطناب والمساواة، والفصل والوصل، والقصر، والاحتباك، والقول بالموجب والمطابقة، والمناسبة، والمجانسة والتورية والاستخدام واللف والنشر والالتفات والفواصل والغايات.

(١) السيوطي ، التحبير في علم التفسير ، ص ٢٩.

وجلي أن هذه المباحث تستغرق جزءاً لا بأس به من فنون البلاغة العربيـــة مـــن بيان ومعان وبديع، والسيوطي في طرحه هذه المباحث في هذا الموطن يتفيأ إبراز الدور الذي يؤديه المصطلح في سياقه القرآني، لكنه في كتابه "التحبير" مـــال إلـــى الاختصـــار وتكثيف مادته الأمر الذي جعله يتناول هذه المباحث دون تفصيل أو بيان ممـــيز للآثـــار الفنية المترتبة على تضمينها كتاب الله عز وجل، كما جعلها تختلط وتتداخل في أحـــايين عدة.

في حين جاء كتابه معترك الأقران في إعجاز القرآن " ليبحث بشكل مسهب وجوه إعجاز القرآن الفني من صلبها الفصاحة والبلاغة ، فكان بحثه فيها واسعاً مميزاً استوعب الوجوه البيانية للتوظيف البلاغي ، فتعدى طرحه لمباحث البلاغة القرآنية المادة النظريـــة ليشمل الأثر الذي يتركه هذا الاستخدام في نفس المتلقي والغاية التي يرجوها المتفنن مـــن هذا الفن.

ولقد بحث السيوطي إعجاز القرآن في خمسة وثلاثين وجهاً كان للبلاغة منها مـــا يلي: الوجه الثالث وبحث فيه حسن التأليف والفواصل والتمكيـــن والتشـــريع وغيرهـــا، والوجه الرابع: وكان حول المناسبة والاستطراد والتخلص .

والوجه الحادي عشر في التقديم والتأخير :

والثاني عشر : في الحصر

والرابع عشر: في العموم والخصوص

والسادس عشر: في الاستدلال

والثالث والعشرون: في الحقيقة والمجاز فيه.

والرابع والعشرون: في تشبيهاته واستعارته

والخامس والعشرون: في الكناية والتعريض

والسادس والعشرون: في الإيجاز والإطناب

والسابع والعشرون: فـــي بدائع القرآن

والثامن والعشرون: في إنشائه وخبره

والثلاثون في أنواع البراهين من سبر وتقسيم واسجال وتسليم وغيرها .

وينطق ما ذكرنا سابقاً بالحجم الذي احتلته البلاغة القرآنية في جسم كتابه ، الأمر

الذي دفعه لإعطاء مادة البلاغة حقها في الطرح النظري من خلال اختياراته ونقولاته مع تركيز على الجانب الفني لهذه المادة من خلال تجلية الأغراض والآثار التي يرجى تحقيقها بذلك الاستخدام .

وجدير بالذكر أن السيوطي خصص الجزء الأول من كتابه للحديث عن وجوه الإعجاز المختلفة في حين ترك الجزأين الآخرين [الثاني والثالث] لتناول الوجه الخامس والثلاثين الذي يبحث المشترك اللفظي للقرآن، وهو الهم الأساس الذي كان يؤرق السيوطي خلال كتابته لهذا الكتاب حتى أنه أشار إليه في الإتقان باسم "معترك الأقران في مشترك القرآن ".

وجاء كتاب "الإتقان في علوم القرآن " ليكمل منظومة البلاغة القرآنية ، فقد خصصه لتناول علوم القرآن ومباحثه ، وهو يقول في خطبة كتابه :" ثم خطر لي بعد ذلك - أي تأليف كتاب التحبير - أن أؤلف كتاباً مبسوطاً ومجموعاً مضبوطاً ، أسلك فيه طريق الإحصاء ... هذا كله وأنا أظن أني متفرد بذلك غير مسبوق إلى أن وقفت على كتاب بدر الدين الزركشي " البرهان في علوم القرآن" ، فازددت به سروراً وقويت العزم على إبراز ما أضمرته، فوضعت هذا الكتاب ورتبت أنواعه ترتيباً أنسب من ترتيب البرهان وزدته على ما فيه من الفوائد والفرائد، وقد جعلته مقدمة للتفسير الكبير الذي شرعت فيه وسميته بـ "مجمع البحرين ... "(١)

والمطالع لكتاب "الإتقان" يجد أنه صيغ بأسلوب أشد إحكاماً من الكتابين السابقين، دون إسهاب ممل أو اختصار مخل ، فهو يدور حول ثمانين مبحثاً من مباحث علوم القرآن، كان للبلاغة منها حيز معقول يسد حاجة الساعي لتلمس مواطن البلاغة العربية في النص القرآني .

ولا تخرج مباحث البلاغة القرآنية في الإتقان عما جاءت عليه في كتابيه السابقين، إذ تشكل هذه المباحث إحدى نقاط الالتقاء بين هذه الكتب، ويسير السيوطي فيها وفق منهجية تكاد تكون واحدة من حيث طرح المادة النظرية من خلال مناقشة آراء العلماء السابقين ثم حشد الأمثلة الدالة على هذا الفن متمماً ذلك ببيان الأغراض الفنية

---

(١) السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ص ١٦.

والفوائد البيانية وراء استخدامه وتتباين هذه الكتب في حجم الآراء المطروحة والشـواهد المدروسة، لكنها في الغالب تظل محتفظة بنفس الخط المنهجي في التأليف، الأمر الـذي يدفعني للاعتماد في مناقشة الخطوط العامة للبلاغة القرآنية على كتاب "الإتقان" مكتفياً بما جاء فيه باعتباره نموذجاً دالاً وافياً .

وسأقف على مثال لمبحث من مباحث البلاغة لنلاحظ طريقة التناول فـي كتبـه الثلاثة السالفة الذكر .

فقد عرف السيوطي "الالتفات" في كتابه "التحبير" بأنه: الانتقـال مـن التكلـم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر ، تطريه للكلام وتفننا في الأسلوب (١).

ثم شرع يضرب أمثلة من القرآن الكريم لمختلف أنواع الالتفات ، وأشار إلـى أن نوع الالتفات من الخطاب إلى التكلم لا يوجد في القرآن ، كما أنه قد يوجـد فـي الآيـة التفاتان (٢).

وذكر نقلاً عن التنوخي وابن الأثير أن منه بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعلـه أو تكلمه نحو :" غير المغضوب عليهم "[الفاتحة/ ٣] بعد "أنعمت"

وألمح إلى نوع غريب يقرب منه وليس منه وهو الانتقال من خطاب الواحـد أو الإثنين أو الجمع إلى خطاب الآخر ومثّل له بشواهد قرآنية (٣).

وفي كتاب " معترك الأقران " كان تسلسل طرحه للمادة وفق النسق الآتي فـابتدأ بتعريفه بـ"نقل الكلام من أسلوب إلى آخر" أعني من التكلم أو الخطاب أو أغلبيـة إلـى آخر منها بعد التعبير بالأول (٤).

ونقل قول السكاكي: إما ذلك أو التعبير بأحدهما فيما حقه التعبير بغيره. وذكر أن له فوائد منها تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر ، وأشار إلى أن هذه فائدته العامة ويختص كل موضع بنكت ولطائف باختلاف محله (٥).

---

(١) السيوطي ، التحبير في علم التفسير ، ص ٥٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠١

(٤) السيوطي ، معترك الأقران ، ص ٢٨٦/١.

(٥) المصدر نفسه ، ٢٨٦/١ .

ثم شرع يمثل لأنواع الالتفات بشواهد قرآنية ، وتميز من خلال تمثيله بالتنبيه على النكتة البلاغية وراء استخدامه من مثل قوله تعالى :" ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون"، ونكتة أنه أخرج الكلام في موضع مناصحته لنفسه وهو يريد نصح قومه تلطفاً وإعلاماً أنه يريد لهم ما يريد لنفسه ثم التفت لكونهم في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله [١].

وإشارة إلى أنه لم يقع في القرآن التفات من خطاب إلى تكلم وردَ ما ورد عند البعض من أمثلة .

وبعد تنقله بين الشواهد القرآنية على الالتفات وأغراضها ختم تنبيهات منها، ما يتعلق بشروطه كأن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه، وأن يكون في جملتين [٢].

وبعضها تتعلق بأنواع أخرى للالتفات وردت عند بعض البلاغيين وهي كما وردت في " التحبير " وزاد نوعاً نقله عن ابن أبي الإصبع بأن يقدم في كلامه مذكورين مرتين ثم يخبر عن الأول منهما ، وينصرف الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثاني ثم يعود إلى الإخبار عن الأول [٣].

فإذا جئنا للإتقان وجدنا أن السيوطي يكرر ما ورد في "المعترك" كلمة كلمة، بل حرفاً حرفاً دون أن يزيد شاهداً واحداً أو أن يورد رأياً جديداً [٤].

الأمر الذي يبعث على التساؤل والاستغراب ، فما الذي يدفع السيوطي إلى تكرار كلامه ؟ وهل انسحب ماورد هنا على باقي مباحث الإتقان أم أنها مجرد مصادفة ؟.

تخبرنا المقارنة الموضوعية بين الكتابين أن نقاط الالتقاء والتماثل بينهما تتعدد بتشابه عناوين المباحث التي تُطرح، بمعنى أن السيوطي في "إتقانه" حينما يبحث

(١) السيوطي ، معترك الأقران ، ص ٢٨٦/١.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٩٠/١.

(٣) المصدر نفسه ، ج١/ ص ٢٩٠ .

(٤) السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج٢، ص ٢٣٦.

موضوعاً ما ورد في "المعترك" فإن أدوات بحثه من لغة وأسلوب وشواهد تكاد تتوحد في نمط معين، وبهذا تظهر في كثير من الأحيان بالصورة نفسها ، فإذا علمنا أن السيوطي في "الإتقان" سعى إلى إيجاد صيغة موجزة متقنة تجمع بين إسهاب "المعترك" وأولية "البرهان" وتستدرك عليهما ما تجاوزاه من دقائق وما فاتها من فرائد ، فلا يدهشنا كثيراً هذا التماثل بين الكتابين في الموضوعات المشتركة وحيث لا مجال لزيادة أو استدراك ، مع الإشارة إلى أن السيوطي أعمل فكره ووظف قدرته التأليفية في زيادات عديدة ، وتفردات جمة نجدها في "الإتقان" دون " المعترك" تجعله متفرداً عنه رغم التشابه بينهما .

ويبقى " الإتقان " كتاباً مميزاً حظي باهتمام الدارسين وأقيمت حوله دراسات عدة لما فيه من ذخيرة علمية واسعة أحاط بها السيوطي وسطّرها بأسلوب سهل التناول والفهم.

وللسيوطي في مجال الدراسة الأسلوبية للقرآن الكريم كتاب يسعى إلى إيجاد علاقات بناء النص القرآني وفق نظرة أسلوبية متقنة، وهذا الكتاب هو "تناسق الدرر في تناسب السور" وهو يركز على ناحية مهمة في مجال الإعجاز القرآني وهي الارتباط والاتصال بين السور القرآنية، وهذه مسألة تتطلب الكثير من الاستنباط وإعمال العقل والغوص على المعاني.

ولم يكن بحث المناسبة وترتيب سور القرآن وعلاقتها ببعض جديداً على السيوطي، فقد بحثه في " المعترك " و " الإتقان " لكنه تميز هنا بالتوسع والاستطراد والاستدلال ليصل إلى أحكام يركن إليها في قراءة العلاقات بين سور القرآن الكريم .

ويطرح السيوطي في مقدمة كتابه مسألة توقيفية ترتيب سور القرآن أو كونها اجتهاداً ، فيعرض لآراء العلماء في ذلك لكنه يختار كونها توقيفية لا اجتهاداً(١).

ويقرر السيوطي في دراسته للبناء القرآني قاعدة مفادها :"أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها وشرح له وإطناب لإيجازه "(٢).

ثم يذكر السيوطي أنواع مناسبات السور القرآنية وهي عديدة لكنه يركز على

(١) السيوطي ، تناسق الدرر في تناسب السور ، ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

علاقة التفصيل بعد الإجمال واتحاد الموضوع والمناسبة اللفظية ومناسبة التضاد وغيرها من المناسبات التي يحاول من خلالها إبراز اتساق النص القرآني وانسجامه .

ولعل ما يميز السيوطي هنا محاولته لدراسة القرآن الكريم باعتباره بنـــاء واحـــداً متصل الخطوط متعاضد الأركان والبحث عن الروابط الخفية التي تجعل بنـــاءه محكمـــاً معجزاً .

ويتضح لنا فيما سبق أن بحث البلاغة القرآنية لدى السيوطي شكل مرتعاً خصبـــاً يمكن للرائد فيه أن يجد مبتغاه، وسأحاول فيما يلي من سطور أن أستجلي عناصر البلاغة القرآنية لديه من مصطلحات وشواهد ، كيما تكتمل صورة البناء البلاغي عنده .

*** مصطلحات البلاغة القرآنية :**

أشير أولاً إلى أن السيوطي قد بحث في كتب علـــوم القـــرآن وإعجـــازه معظـــم مصطلحات البلاغة العربية ، وقد بحثت تفصيلاً جوانب البلاغة عنده في الفصل الثـــاني من الدراسة ، ولذلك فإن تكرار هذه المصطلحات ليصبح ضرباً من الإعادة التي لا طائل تحتها وحملاً ثقيلاً في جسم الرسالة غير محمود ولا مقبول.ومن هنا فسأقصر حديثي هنا على المصطلحات التي تتعلق بالنص القرآني، ولها وطيد صلة ببنائه وإعجازه دون النظر إلى باقي المصطلحات البلاغية مكتفياً بما ورد حولها من بحث في كتابه "عقود الجمان" إذ لا زيادة هنا إلا في المنهجية والأغراض التي سيقت لأجلها.

وسيكون تناول هذه المصطلحات على مستويين :

الأول : مستوى البلاغة القاعدية : وفيها تتوضح حدود المصطلح البلاغي وترسم معالمه وأركانه وشواهده .

الثاني : مستوى البلاغة القيمية : التي تتناول الأبلغية والتأثير والجوانب الجمالية والفنيـــة في المصطلح .

أولاً : البلاغة القاعدية

١-المناسبة

وحَدها في اللغة المشاكلة والمقاربة ، ورأى السيوطي أن مرجعها في الآيات إلى معنى رابط بينها عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي ، أو غير ذلـــك مـــن أنـــواع العلاقات أو التلازم الذهني ، كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظـــيرين والضديـــن

ونحوه [١].

وقد شرع السيوطي بتفصيل العلاقات التي تجعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، وذكر أن هذا الارتباط إما أن يكون ظاهرا أو غير ظاهر [٢].

ثم تحدث عن القرائن المعنوية التي تؤذن باتصال الكلام وذكر منها:

-التنظير : فإنّ إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء ومثّل له بقوله تعالى: "كما أخرجك ربك بالحق "[الأنفال/٥] عقب قوله:" أولئك هم المؤمنون حقاً "[الأنفال/٤] فإنه تعالى أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه ، كما مضى لأمر في خروجه من بيته لطلب العير أو للقتال [٣].

-ومنها الاستطراد ومثّل لها بقوله تعالى: "ولباس التقوى ذلك خير " [الأعراف،٢٦] بعد حديث اللباس وستر العورات .

-وجعل منها "حسن التخلص" وحدّه: بأن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاساً دقيق المعنى بحيث لا يشعر القارئ بالانتقال [٤]. وأنكر على من نفى وجوده في القرآن ومثل له بشواهد كثيرة .

وتناول في السياق ذاته مناسبة فواتح السور وخواتمها ، فذكر أنه لا بد من صلة بين فاتحة السورة وخاتمتها ، فقد تكون موضوعية تتناول الموضوع نفسه كما في سورة "ص" التي بُدِئت بالذكر وختمت بقوله تعالى :" إن هو إلا ذكر للعالمين "[ص/٨٧] ، وقد تكون فاتحة السورة مناسبة لخاتمة قبلها .

وخرج من ذلك لمناقشة ترتيب وضع السور في المصحف ، فأشار إلى أنه توقيفي، وأنه يكون لأسباب إما لفظية تعود للبناء اللفظي لفاتحة السورة وخاتمة ما قبلها ، أو معنوية تعود للعلاقة الموضوعية بين السورتين [٥].

---

(١) السيوطي ، الإتقان ، ج٢ ، ص ٣٠٢.

(٢) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٣٠٢.

(٣) المصدر نفسه ، ج٢ص ٣٠٣.

(٤) المصدر نفسه ، ج٢ص ٣٠٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ج٢ ٣٠٩ -٣١١.

وختم بحثه بالإشارة إلى مناسبة أسماء السور لمقاصدها [1].

وهكذا نجد السيوطي في مناقشته لمصطلح المناسبة في القرآن الكريم قد تدرج به وفصّله سعياً منه لبيان إحكام بناء القرآن وجزالة تركيبه وحرص من خلال تفصيله لجوانب هذا المصطح على الاستشهاد له بالآي القرآني .

٢ – المنطوق والمفهوم

وحدّ المنطوق : بما دل عليه اللفظ في محل النطق [2].وأشار بعد ذلك إلى كيفية التعامل مع هذا المنطوق وفق دلالته السياقية فإن أفاد معنى لا يحتمل غيره: فالنص بمعنى إفادة المعنى على القطع ،وإن احتمل معنى مع احتمال غيره مرجوحاً : فالظاهر نحو قوله تعالى: "ولا تقربوهن حتى يطهرن " [البقرة /٢٢٢] فإنه يقال للإنقطاع طهر، وللوضوء والغسل ، والثاني أظهر ، فإن حمل على المرجوح لدليل، نحو تأويل كقوله تعالى :" وهو معكم أينما كنتم " [الحديد / ٤]، وقد يكون مشتركاً بين حقيقتين، أو حقيقه ومجاز ويصح حمله عليها جميعاً .

وأشار في هذا المقام إلى دلالة الاقتضاء ، وذلك إذا توقفت صحة دلالة اللفظ على إضمار كقوله تعالى :" واسئل القرية " [يوسف /٨٢]

ودلالة إشارة إن لم تتوقف ودل اللفظ على ما لم يقصد به كقوله تعالى: "أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم" [البقرة/١٨٧] دليلاً على صحة صوم من أصبح جنباً [3].

أما المفهوم فهو : ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق. وهو قسمان مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة [4].

وذكر أن الأول ما يوافق حكمه المنطوق ومنه "فحوى الخطاب" إن كان أولى كقوله تعالى: "فلا تقل لهما أفٍ " [الإسراء /٢٣] على تحريم الضرب ولحن الخطاب : إن

---

(١) السيوطي ، الإتقان ، ص ٣٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٢/ص٦٨.

(٣) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٦٩.

(٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٦٩

كان مساوياً .

والثاني : ما يخالف حكمه المنطوق وهو إما مفهوم صفة أو شرط أو غاية أو حصر [١].

وجلي أن هذا المبحث ذو علاقة متينة بفهم النص القرآني واستنباط الأحكام منه ، فهو يفصّل لنا طرق التعامل مع اللفظة القرآنية ومن ثَمّ فهم المدلول من سياقاتها.

٣- فواصل الآيات:وحدها: بكونها كلمة آخر الآية [٢].

وشرع بعد ذلك بمناقشة آراء العلماء ببيان حد الفاصلة وكونها توقيفية أم قياسية، وذكر أنه أجمع على منع تسمية الفواصل بالقوافي لأن القوافي خاصة بالشعر.

ثم انتقل إلى إيراد آراء العلماء بِعَدِّ الفواصل سجعاً أم لا ؟ فذكر آراء المؤيدين وأدلتهم وآراء المعارضين وأدلتهم [٣]، دون أن يخرج من ذلك برأي خاص أو أن يرجح أحد الرأيين على الآخر ، وكأنه يترك للقارئ حرية الاختيار دون تقييد .

وأشار إلى رأي ابن أبي الإصبع بأن الفاصلة لا تخرج عن واحد من أربعة أشياء التمكين والتصدير والتوشيح والإيغال [٤].وبدأ بالحديث عن علاقة الفاصلة بالمعنى الإجمالي للآية التي وردت فيها، وأنها تتبدل وفق منظومة معنوية وليس عبثاً ، وهذا ما يسمى "التمكين" ، أما "التصدير" فهو :أن تكون تلك اللفظة بعينها تقدمت في أول الآية ، وتسمى كذلك رد العجز على الصدر.

أما التوشيح فأن يكون في أول الكلام ما يستلزم الفاصلة [٥]. وذكر أن الفواصل تقسم أيضاً إلى مطرّف ومتوازٍ ومرصع ومتوازن ومتماثل ، وهذه التقسيمات تكون تبعاً لاتفاق الفاصلتين وزناً وتقفية [٦].

---

(١) السيوطي ، الإتقان، ج٢، ص ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٢٦٦.

(٣) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٢٦٨-٢٧٢.

(٤) المصدر نفسه ، ج٢/٢٧٨.

(٥) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٢٨٦.

(٦) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٢٨٧.

والغريب أن السيوطي في ختام بحثه للفواصل يشير إشارة ضمنية إلى اعتبار الفاصلة سجعاً، فهو يطبق ما قاله البديعيون عن السجع على الفاصلة القرآنية، ويجري عليها مختلف الأحكام التي جرت على السجع . وكان الأجدر بالسيوطي أن يرجح أحد الرأيين ، وأن يذكر رأيه صراحة ويبني بحثه بناءً على ذلك .

وأما الإيغال فهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها [١]،من ذلك قوله تعالى:"يا قوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون "(يس/٢٠-٢١)

٤- بدائع القرآن

ذكر السيوطي تحت هذا الباب أنواعاً كثيرة من مباحث البديع كما وردت في كتب البلاغة ، وسأقف عند ثلاثة مصطلحات منها التورية (الإيهام)، والاستخدام، وائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى .

أما التورية أو الإيهام: فهو أن يذكر لفظ له معنيان - إما بالاشتراك، أو التواطؤ، أو الحقيقة أو المجاز - أحدهما قريب والآخر بعيد ويقصد البعيد ويوري عنه بالقريب ، فيتوهمه السامع من أول وهلة [٢].

وقسّم التورية إلى مرشحة ومجردة ، وذلك حسب ذكر شيء من لوازم المورى عنه أو به أو عدم ذكره .ومثل لها بشواهد من القرآن من ذلك قوله تعالى :" الرحمن على العرش استوى " [طه/٥] فالاستواء بمعنى الاستقرار وبمعنى الملك وهو المقصود .

وجعل السيوطي "الاستخدام" من أشرف أنواع البلاغة كما "التورية" وذكر أنهم يضعون له حدين:

الأول : أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً به أحد معانيه ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر ، وأشار إلى أن هذه طريقة السكاكي وأتباعه [٣].

الثاني : أن يؤتى بلفظ مشترك، ثم بلفظين، يفهم من أحدهما أحد المعنيين ومن الآخر الآخر ، وأشار إلى أنها طريقة ابن مالك ومثّل لها بقوله تعالى :" لكل أجل كتاب " (الرعد/٣٨) فلفظ "كتاب" يحتمل الأمد المحتوم ، والكتاب المكتوب ، ولفظ "أجل" يخدم المعنى الأول و "يمحو" (الرعد/٣٩) يخدم المعنى الثاني [٤].

---

(١) السيوطي ،الاتقان ،ج٢/١٩٧

(٢) المصدر نفسه ، ج٢/٢٢٨.

(٣) المصدر نفسه ، ج٢ ، ٢٣٠.

(٤) المصدر نفسه ، ج٢/٢٣٠ .

وذكر السيوطي أنه استخرج بفكره شواهد على "الاستخدام" على طريقة السكاكي من ذلك توجيهه لقوله تعالى: "أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (النحل/١) ، فأمر الله يراد به : قيام الساعة، والعذاب، وبعثة النبي عليه السلام، وأعيد الضمير عليه في (تستعجلوه) [النحل/١] مراداً به قيام الساعة والعذاب(١).

- ائتلاف اللفظ مع اللفظ :

ذكر السيوطي ان تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضاً بأن يقرن القريب بمثله والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار والمناسبة، وذلك مثل قوله تعالى :" تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا " (يوسف/٨٥)، فقد ضمت الآية مجموعة متجانسة من الألفاظ الغريبة(٢).

ويتم ائتلاف اللفظ مع المعنى : بأن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد، فإن كان فخماً كانت ألفاظه فخمة أو جزلا فجزلة أو غريبا فغريبة وهكذا. ومنه قوله تعالى: "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار " (هود/١١٣) لما كان الركون دون المشاركة كان العقاب مساً لا إحراقاً(٣).

وناقش السيوطي في ميدان الأسلوب القرآني مصطلح "الاقتصاص" وهو أن يكون في كلام في سورة مقتصاً من كلام في سورة أخرى أو في تلك السورة مثل قوله تعالى: "ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين " [الصافات/٥٧] مأخوذاً من قوله "أولئك في العذاب محضرون " [سبأ:٣٨] (٤).

(١) السيوطي ، الإتقان ، ج٢/ ٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٢٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ج٢، ص ٢٤٠.

(٤) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٢٤٢.

٥- جدل القرآن :

أكد السيوطي في بدء مناقشته لأساليب الجدل القرآني أن هذا الفن موجود في النص القرآني ، ولا ينتقص من قدره مورداً حجم العلماء في إثبات وجوده وخاصة ما أورده ابن أبي الاصبع حول المذهب الكلامي الذي عرفه بقوله :" إنه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام" (١).

وذكر منه استنتاج النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة، مستشهداً ببعض الأمثلة القرآنية التي تعزز ذلك ومنها قوله تعالى: "كما بدأكم تعودون" [الأعراف/٢٩] فقد قاس الإعادة على الابتداء (٢).

وأشار السيوطي إلى نوع من أنواع الجدل وهو "السبر والتقسيم" وضرب له مثلاً من القرآن قوله تعالى: " ثمانية أزواج من الضأن اثنين " [الأنعام/١٤٣] ، فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى، ردّ الله تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم(٣) ، بمعنى أنه يضع جميع الاحتمالات المؤدية إلى هذه النتيجة ثم يبدأ بتفنيدها ثم ليصل إلى إثبات خطأ مقولتهم .

ومنه كذلك " القول بالموجب "وحده على رأي ابن أبي الإصبع بـ " رد كلام الخصم من فحوى كلامه ، ثم ذكر أنه على قسمين : أحدهما : أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم فيثبتها لغير ذلك الشيء كقوله تعالى: "يقولون لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، ولله العزة ..." [المنافقون /٩] .

وثانيهما: حمل لفظ في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقة ومثّل له بقوله تعالى :" ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذُنٌ، قل أُذُنُ خير لكم" [التوبة/٦١].

ومنه "التسليم" وهو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع لكون المذكور ممتنع الوقوع لاتساع وقوع شرطه ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه كقوله عز وجل: "ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض " [المؤمنون/٩١] المعنى: ليس مع الله إله ولو سلم أن معه إلها لزم ذلك ذهاب كل إله بما خلق وفسد الخلق (٤).

---

(١) السيوطي ، الإتقان ، ج٢/٣٧٧.

(٢) المصدر نفسه ، ج٢،٣٧٩

(٣) المصدر نفسه ، ج٢/٣٨٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ج٢/٣٨٢

وذكر منه " الاسجال" وعرفه بأن يؤتى بألفاظ تسجل على المخاطب وقوع ما خوطب به نحو قوله تعالى:"ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك"[آل عمران/١٩٤] فإن فيه إسجالاً بالإيتاء حيث وصف بالوعد من الله الذي لا يخلف وعده (١).

وختم السيوطي بحثه في جدل القرآن بذكر مصطلحي الانتقال والمناقضة ومجاراة الخصم، وعرّف الأول بأن ينتقل المستدل إلى الاستدلال غير الذي كان آخذاً فيه لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول ، واستشهد له بقصة محاجّة إبراهيم للنمرود لما قال له :" ربي الذي يحي ويميت " [البقرة/٢٥٨].

أما المناقضة فهي تعليق أمر على مستحيل ، إشارة إلى استحالة وقوعه، كقوله تعالى:" ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط " [الأعراف /٤٠].

وتكون مجاراة الخصم ليعثر، بأن يسلّم بعض مقدمته حيث يراد تبكيته وإلزامه كقوله تعالى :" قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم " [إبراهيم/٤٠-٤١] فاعترافهم بالبشرية مجاراة لعقول خصومهم (٢).

وسأقف أخيراً عند مصطلح "العموم والخصوص" في ميدان البلاغة القرآنية في إطارها القاعدي .

فقد عرف السيوطي "العام": بأنه لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر(٣). وذكر من صيغه: لفظة "كل" و "الذي" و "التي" و "أي"، و"ما"، و"من" والجمع المضاف والمعرف بأل ،واسم الجنس المضاف والنكرة في سياق النفي أو النهي (٤). ومن شواهده: "كل من عليها فان "، [الرحمن/٢٦] وقوله تعالى: "فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج" [البقرة/١٩٧] .

(١) السيوطي ، الإتقان ، ، ج٢/٣٨٢.

(٢) المصدر نفسه ، ج٢، ٣٨٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٢/١٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ج٢/١٤.

وقسّم العام إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الباقي على عمومه ، وذكر أنه يكون في الأحكام الفرعية والعامة ومثّل له بقوله تعالى " حرمت عليك أمهاتكم "[النساء/٤] إذ لا خصوص فيها. ومن الأحكام العامة قوله تعالى :" إن الله لا يظلم الناس شيئاً " [يونس/٤٤].

والثاني : العام المراد به الخصوص

والثالث : العام المخصوص

وذكر أن هناك فروقاً بينهما ومن أبرز هذه الفروق أن الأول مجاز قطعاً بخلاف الثاني ، فالأرجح فيه أنه حقيقة، وكذلك فإن للأول قرينة عقلية لا تنفك عنه ، في حين قرينة الثاني لفظية قد تنفك عنه (١).

ومثل للأول بقوله تعالى :" الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ..." [آل عمران/١٧٣] والقائل واحد .

وذكر أن أمثلة النوع الثاني كثيرة جداً إذ ما من عام إلا وقد خُصَّ وأشار إلى أن التخصيص يكون مفصلاً أو منفصلاً والمتصل يكون بالاستثناء أو الوصف أو الشرط أو بدل البعض من الكل ومن أمثلته قوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاوون" إلى قوله "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات" [الشعراء/٢٢٤-٢٢٧].

وقوله تعالى :" ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا "[آل عمران/٩٧]

أما المنفصل فيكون بآية أخرى أو حديث أو إجماع أو قياس .

ويتصل في هذا المقام ما وقع مجملاً أو مبيناً في القرآن الكريم، إذ إن من خصوصية الأسلوب القرآني أن تقع بعض عباراته مجملة واسعة الدلالة ليتسع معها أفق المعنى الذي يحتمله النص .

---

(١) السيوطي ، الإتقان ، ج٣/١٦.

وذكر السيوطي أن من أسباب الإجمال :

-الاشتراك : كقوله تعالى :" والليل إذا عسعس " [التكوير/١٧]

-الحذف : نحو :" وترغبون أن تنكحوهن " [النساء/١٢٧] يحتمل "في" و"عن".

-واختلاف مرجع الضمير نحو قوله تعالى: "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه "[فاطر/١٠]

ومنها غرابة اللفظ وعدم كثرة الاستعمال وغيرها (١).

وأكتفي بهذا القدر من المصطلحات البلاغية كمثال دال على منهجية الطرح وأسلوب التناول الذي اختطه السيوطي في بحثه للبلاغة القرآنية ، ولعلنا نلحظ أن خيوط هذا المنهج تتشكل وفق مسعى "يهدف إلى إبراز خصوصية القرآن في توظيف هذه المصطلحات والإفادة مما تتيحه من تجليات وآفاق .

واختط السيوطي في بحثه لمصطلحات البلاغة في هذا المقام مساراً ينحرف قليلاً عما سار عليه في كتبه البلاغية كـ "عقود الجمان " و "إتمام الدراية" فهو في تلك الكتب يدور ضمن دائرة تحديد مفاهيم البلاغة وضبط قواعدها وأحكامها ، لكنه هنا يتعامل مع البلاغة باعتبارها وجه من وجوه الإعجاز القرآني يهدف من خلال تناولها إلى إبراز فنياتها وتجلية خدمتها للنص القرآني، الأمر الذي يدفعه إلى التركيز في نقولاته عن علماء الإعجاز. وعن البلاغيين الذين يهتمون بأدبية البلاغة، مع عدم إهمال آراء البلاغيين الذين اهتموا بالتحديد والتقسيم خاصة إذا كان الأمر يستدعي توضيح أقسام ذلك الفن البلاغي الذي يدرسه، ومن ذلك ما أورده في تناوله للاستعارة، فقد تابع السكاكي والقزويني في تقسيماتها وبيان حدودها (٢)، وينسحب ذلك على غير موضع من مواضع البلاغة القرآنية.

ويحاول السيوطي في تقديمه للبلاغة في سياقها القرآني أن يبرز السمات الخاصة

---

(١) السيوطي ، الإتقان ، ج٢/٣٥.

(٢) المصدر نفسه . ج٢/١٠٩-١١٥.

للاستخدام القرآني باعتباره نصاً تشريعياً تبنى منه الأحكام وتستخلص الشرائع، وعليه فإن لكل لفظة أو ملمح أسلوبي خاص جهة استخدام ومقصد لا يتأتى إلا من خلاله، ولابد من توضيحه وبيان تفصيله .

وتبقى الإشارة إلى أن السيوطي بحث المصطلحات البلاغية في السياق القرآني بعيداً عن توزيعها المقرر - بيان ومعانٍ وبديع - بل هي تتداخل أحياناً ، فهو يهتم بها حسب مواضعها في جسم بحثه لإعجاز القرآن أو علومه فبحثها عنده وسيلة لا غاية .

ثانياً : البلاغة القيمية

كانت البلاغة في مستواها القيمي الابلاغي أساساً سعى السيوطي إلى ترسيخه في بحثه لمصطلحات البلاغة القرآنية ، فهو الجانب الذي ميز بحثه لهذا الاتجاه البلاغي ، وما زال مقصداً يرنو إلى تجليته في كل مصطلح يبحثه .

ويمكننا بحث الأغراض التأثيرية الإبلاغية لمصطلحات البلاغة القرآنية ضمن ثلاثة محاور :

الأول : ما يتعلق بالمتفنن

والثاني : ما يتعلق بالمتلقي

والثالث : ما يتعلق ببنية النص القرآني .

فأما ما يتعلق منها بالمتفنن وهو هنا الله عز وجل الذي أنزل النص القرآني على أحكم وجه، فتجيء بعض مصطلحات البلاغة القرآنية فيه لتعظيم اسمه وتشريفه ، كما في مسائل التقديم والتأخير ، ووضع الظاهر موضع المضمر، أو لتنزيهه كما في الاعتراض أو لقصد إظهار الهيبة .

وهكذا تدور هذه المعاني في كثير من مصطلحات البلاغة القرآنية وجميعها تنطق بالتوحد والتفرد لله سبحانه ولا يكاد يمر مصطلح بلاغي دون أن يخدم في جانب منه صورة المتفنن.

ثانياً - ما يتعلق بالبناء القرآني:

فإن كثيرا من المصطلحات البلاغية تتعلق ببنية النص القرآني وتخدمه ، ويوظفها الاستخدام القرآني في سبيل بناء معجز للقرآن .

وقد أشار السيوطي إلى أهم الأغراض الفنية في أكثر من موضع للبلاغة القرآنية من ذلك ما ذكره من فنيات التقديم والتأخير في القرآن الكريم فأشار إلى أنه يقدم الشـــيء لإظهار الاهتمام به وقد يكون لمناسبة السياق كما في قوله تعالى: "تـــأكل منـــه أنعـــامهم وأنفسهم"(السجدة/٢٧) فقدم الانعام مع دنو رتبته لمناسبة السياق حيث تقدم ذكر الزرع[١].

وقد يكون هذا التقدم لقصد التفنن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أســـاليب كما في قوله تعالى: "وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة " ،(البقرة/٥٨) وقولـــه " وقولـــوا حطة وادخلوا الباب سجدا" (الأعراف/١٦١) .

وفي الكناية أشار إلى أسباب لجوء القرآن لاستخدامها وذكر منها : ترك اللفظ إلى ما هو أجمل ،وترك التصريح مما يستقبح ذكره لأن القرآن منزه عن ذلك [٢].

وفي مبحث الإيجاز أبرز السيوطي متانة الأسلوب القرآني وإعجازه في بناء جمله التي تنطق رغم وجازتها بما تعجز عنه عشرات الصفحات، ومنه قوله تعالى "خذ العفــو" (الأعراف/١٩٩) فإنها جامعة لمكارم الأخلاق.

وقوله عز من قائل: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك" (هود /٤٤) فقد أمر فيها ونهى، وأخبر ونادى، ونعت وسمى، وأهلك وأبقى، وأسعد وأشقى ،وقص من الأنباء ما لو شرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام [٣].

وسار السيوطي في هذا المنحى عبر بحثه للبلاغة القرآنية ويتطلب تتبعه فيضا من الصفحات لا يتسع لها المقام هنا وتكفي الإشارة الدالة لتوضيح ما جاء مبسوطا عنده.

---

(١) السيوطي ، الاتقان ج٢/ص٩ .

(٢) المصدر نفسه ،٢١٨/٣ .

(٣) المصدر نفسه ١٤٠/٢ .

ثالثاً : ما يتعلق بالمتلقي :

لقد أنزل القرآن على أحكم وجه وجاءت أساليبه متنوعة معجزة، لا يمل قارئها ولا يسأم طالبها، تجذب الأسماع وتؤثر في النفوس .وجاء توظيف البلاغة ليعزز هذا المطلب ويخدم هذا المسعى .

وسعى السيوطي خلال مناقشاته لمصطلحات البلاغة القرآنية إلى إبراز إبلاغية هذه المصطلحات وتأثيرها في نفوس المتلقين.من ذلك إشارته إلى أن استخدام القرآن للمثل يهدف إلى التأثير في نفوس الناس لأنها أثبت في الأذهان؛ ولذا يستفاد منها التذكير والوعظ والحث والزجر وغير ذلك (١).

وفي الالتفات ذكر أنه من الأساليب التي يلجأ إليها القرآن لحث السامع وبعثه على الاستماع وحضور الذهن (٢).

وجاء قول الله تعالى "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها" (النساء/٥٨) بوضع الظاهر موضع المضمر قصد تربية المهابة وإدخال الروع على ضمير السامع (٣).

وأشار السيوطي إلى لجوء القرآن للإطناب في قوله تعالى: "وويلٌ للمشركين، الذين لا يؤتون الزكاة" (سورة فصلت/الآية ٦-٧) وليس من المشركين مزك لحث المؤمنين على أدائها والتحذير من المنع حيث جعل من أوصاف المشركين (٤).

ويلجأ القرآن إلى التعليل لأن ذلك أقدر على تقبل النفس للأحكام، وأبلغ في التأثير على رأي السيوطي (٥).

ولعلي اكتفي بما أوردته من أمثلة للبلاغة القيمية على مستوى المتلقي مع يقيني أنها لا تشكل إلا نزراً يسيراً مما ورد في بحث البلاغة القرآنية لدى السيوطي وحسبي أنني لا أقصد التتبع والاستقصاء، بل توصيل المفهوم من خلال هذه الطائفة من الأمثلة التي تشكل مع سابقاتها (في المتفنن،والنص) إشارة دالة على اعتناء السيوطي بتجلية هذا الجانب من جوانب البلاغة القرآنية إذ إن النص القرآني لا يوظف أسلوباً ولا يستخدم فناً إلا لغرض إبلاغي ما، وليس لدراسة مباحث البلاغة فيه أي قيمه أن لم تقرن بإبراز الأغراض التي سيقت لأجلها .

---

(١) السيوطي الإتقان ج٢/٣٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢/٢٣١ .

(٣) المصدر نفسه ،٢/١٩٣ .

(٤) المصدر نفسه، ٢/١٦٩.

(٥) المصدر نفسه، ٢/٢٠١.

شواهد البلاغة القرآنية :

دارت شواهد السيوطي في كتبه المتعلقة ببلاغة القرآن حول الآيات القرآنية فقط ، وأهمل إيراد الشعر أو الأحاديث النبوية ، ولعله في ذلك يسعى إلى تعزيز هذه المفـــاهيم وتبينها عبر النص القرآني حسب ، وليس ذلك عجزاً منه في التمثيل لمصطلحات البلاغة، فقد رأينا كيف تنوعت أمثلته وتعددت في كتبه الأخرى بل إنه كان يحشد العشرات، بـــل المئات من الشواهد المتنوعة لخدمة مباحثه البلاغية كما ورد في كتابه " جني الجنـــاس " مثلاً .

وتعامل السيوطي مع شواهده القرآنية بطريقتين :

الأولى : أورد هذه الشواهد أمثلة لمصطلحات البلاغة وأقسامها دون إشارة إلـــى المعنى المرتجى من الفن البلاغي في تلك الآية ، وتنسحب هذه الطريقة على جل شواهده في البلاغة القرآنية .

الثانية : تناول النص القرآني بتوجيه وتحليل وبيان للأثر الفني الإبلاغـــي الـــذي أضفاه المصطلح البلاغي في النص.وهو في ذلك على اتجاهين : اتجاه يكتفي بالإشـــارة إلى الغرض الفني من المصطلح من ذلك ما أورده من شواهد على أغراض التعريض :
كالتلطف به والاحتراز عن المخاشنة كقوله تعالى :" ومالي لا أعبد الذي فطرني " [يس/٢٢] ، واستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم (١)، كقوله تعـــالى :" لئـــن أشـــركت ليحبطن عملك " [الزمر/٦٥].وغير ذلك من المباحث المشتركة عبر ثنايا كتبه، مُشَـــكِّلَة غالب ما ورد من شواهد.
والاتجاه الآخر يتناول الشاهد بـــالتحليل والتوجيـــه متتبعـــاً أســـراره وشـــوارده وسنضرب لذلك مثالين :

الأول : ما ورد في مبحث الاستقصاء تعليقاً على الآية: "أيود أحدكم أن تكون لـــه جنة ..." [البقرة/٢٦٦] فقد قال السيوطي: "فإنه تعالى لو اقتصر على قوله "جنـــة " لكـــان كافياً فلم يقف عند ذلك حتى قال في تفسيرها "من نخيل وأعناب" فإن مصاب صاحبها بها

(١) السيوطي ، الإتقان ، ج٢/١٣٢ .

أعظم ، ثم زاد " تجري من تحتها الأنهار " متمماً لوضعها بذلك ، ثم كمل وضعها بعـــد التتميمين فقال :" له فيها من كل الثمرات " فأتى بكل ما يكون في الجنان ليشـــتد الأســف على إفسادها ، ثم قال في وصف صاحبها: "وأصابه الكبر"، ثم استقصى المعنى في ذلـــك بما يوجب تعظيم المصاب بقوله بعد وصفه بالكبر " وله ذرية " ولم يقف عند ذلك حتـــى وصف الذرية بـــ "ضعفاء " ، ثم ذكر استئصال الجنة بالهلاك في أسرع وقت حيث قال : "فأصابها إعصار " ،ولم يقتصر على ذكره للعلم بأنه لا يحصل به سرعة الهلاك ، فقال : " فيه نار"، ثم لم يقف عند ذلك حتى أخبر باحتراقها ، لاحتمال أن تكون النار ضعيفـــة لا تفي باحتراقها فاحترس عن هذا الاحتمال بقوله " فاحترقت " [(١)].

والمثال الآخر ذكره السيوطي في مبحث فواصل الآي حيث قال :

قد تجتمع فواصل في موضع واحد ويخالف بينها، ومن ذلك قولــه تعــالى: "قــل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم...... " (الأنعام ١٥١) والآيات التي بعدهــا، فــإن الأولــى ختمت بقوله " لعلكم تعقلون" والثانية بـــ لعلكم تذكرون" ، والثالثة ب" لعلكم تتقـــون"، لأن الوصايا التي في الآية الأولى إنما يحمل على تركها عدم العقل الغالب على الهــوى مــن إشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل الأولاد وإتيان الفواحش وقتل النفس، فإتيان ذلك كله لا يقتضيه عقل، فحسن بعد ذلك " تعقلون". وأما الثانية: فلتعلقها بالحقوق المادية والقوليـــة، ولأن معاملة الآخرين بما لا يقبله المرء على نفسه يكون لغفلة عن تدبر، ناســـب الختـــم بقوله تعالى: "لعلكم تذكرون". وأما الثالثة فلأن ترك اتباع شرائع الله الدينية مـــؤد إلـــى غضبه وإلى عقابه فحسن" لعلكم تتقون" أي عقاب الله بسببه [(٢)].

وهكذا يقدم لنا السيوطي توجيهاً موفقاً وتحليلاً شافياً لبعض شواهده القرآنية ساعيا من ذلك إلى تلمس أسرار استخدام المصطلح البلاغي فيها .

---

(١) السيوطي ، الإتقان ، ج٢/١٩٩.

(٢) المصدر نفسه ج٢/٢٨١ .

وبعد :

فيمكنني القول بعد هذا التطواف في ميدان البلاغة القرآنية عند السيوطي، إنه قـد وفق في ضم أجزاء هذه المباحث وتجلية مراميها ، ورغم أنه لم يكن متفردا في طرحـه، وأنه اعتمد على كثيرين من أرباب هذه الصناعة وأساطينها إلا أنه تمكن مـن الإحاطـة بمفرداتها وتقديمها لقرائه ضمن سياقاتها في كتب الإعجاز وعلوم القرآن دون شـذوذ أو إقحام.

الخاتمة:

إن المتتبع لبلاغة السيوطي كما وردت في كتبه وما درسناه آنفاً **ليخرج** بالنتائج التالية:

أولا: إن السيوطي قد تناول موضوعات البلاغة العربية في ميدانين هما. ميدان البلاغة الصرفة، وميدان علوم القرآن وإعجازه.

ثانيا : إن الآثار السيوطية في البلاغة قد تنوعت بين التأليف المحض والتلخيص والنظم والشرح والإجابة عن مسائل لعلوم البلاغة صلة بها.

ثالثا: يغلب عليه المنهج العقلي في الدرس البلاغي، وهو يقوم على استقصاء أكبر قدر من النقول التي بحثت فيختار منها ما يناسب مقاله، ثم يستدرك عليها، وهو في ذلك محكوم بالموضوعية والأمانة العلمية إذ نوه بالمصادر التي اقتبس منها وذكر العلماء الذين أخذ عنهم.

رابعا: إن السيوطي لا يضع قواعد جديدة للبلاغة العربية، وإنما تبرز قيمته بجمعه خلاصة ما تحرر إليه من تراث بلاغي وكان منه ما ضاع ولم ينج من عاديات الزمن بحفظه ووعاه.

خامسا: تركز جهده في كتبه البلاغية الصرفة حول "مفتاح" السكاكي و "تلخيص" القزويني، ووقع أسير منهجيتهما في البحث والتناول، وحاول الخروج من ذلك من خلال ما طرحه من آراء لعلماء آخرين ومناقشاته لهما.

سادسا: كان بحثه للبلاغة في سياقها القرآني أكثر اتقاناً وأجود سبكاً، إذ تحرر من إسار القزويني وقيده، إذ كان مدفوعاً بشغفه لخدمة القرآن الكريم وتجلية جوانب إعجازه، مما جعله يعتني بإبراز جمالية الفنون البلاغية وإبلاغيتها وتميزها ضمن النص القرآني.

سابعاً: تميز السيوطي بالعناية بالشواهد واستقصائها وتنوعها في مختلف فنون القول من آي وحديث وشعر ونثر وقد أسرف في استقصاء الشواهد في كتابه "جني الجناس" حتى فاقت مادة الكتاب النظرية.

ثامناً: تبرز شخصية السيوطي وذوقه في تحليلاته البلاغية للنصوص الأدبية، والشواهد القرآنية التي توقف عند إبراز فنياتها وعناصرها الجمالية.

تاسعاً: تناثرت معرفة السيوطي الموسوعية خلال بحثه لفنون البلاغة فوقف عند بعضها بعقلية الأصولي، وحاكم أجزاء منها على طريقة النحاة وانتصر لأجزاء أخرى على منهج علماء الحديث.

وهو لا يفتأ يثري بحثه بما يوظفه من مناقشات نحوية أصولية خدمة لهذا الفن البلاغي أو ذاك.

عاشراً: له جهد واضح في مجال علم "البديع" الذي حاول فيه أن يأتي بفنون لم يسبق إليها، واجتهد في اختراع بعض فنونه سواء على صعيد التسمية أو النوع.

وتميز بقدرته على تناول فن بديعي وتتبع شوارده وأصغر جزئياته حاشداً له ما استطاع من أمثلة، ألا وهو فن "الجناس".

حادي عشر: تعامل السيوطي بإتقان في دراسته لأساليب بناء النص القرآني، واستطاع أن يبرز جماليات هذا البناء من طرح وجهات نظر أسلوبية تتعلق ببنية النص وتشابك علاقته، وكان ذلك في كتابه "تناسق الدرر" خاصة وما أشار إليه في مباحث "المناسبة" ضمن علوم القرآن وإعجازه.

ثاني عشر: حمل كل كتاب ألفه السيوطي في مجال البلاغة الصرفة، أو البلاغة القرآنية، ميزة خاصة تميزه عن الكتب الأخرى، رغم أنها قد تلتقي في كثير من الموضوعات التي تبحثها.

لقد قدّم السيوطي عبْر جهده البلاغي المتنوع خلاصة ما تراكم بين يديه من معارف خاصة البلاغية منها – فصاغها في محاور متعددة، وصنّف منها تآليف متنوعة الأهداف مختلفة الاتجاهات لكنها تصب جميعاً في بوتقة تشكيل وعي بلاغي لدى الناس وصولاً لفهم شامل لكتاب الله عز وجل.

المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

أ-المصادر

-ابن أبي الإصبع ،أبو محمد زين الدين بن عبد العظيم (-٦٥٤هـ)

تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تقديم وتحقيق :حنفي محمد شرف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ،١٩٦٣م.

-التفتازاني ،سعد الدين ،المختصر على تلخيص المفتاح ،ضمن شروح التلخيص وتضم

-مواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح ،لابن يعقوب المغربي

-عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ،لبهاء الدين السبكي

وفي الهامش كتاب "الإيضاح" للقزويني و حاشية الدسوقي على شرح السعد طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر ،١٩٥٦م.

- المطول على التلخيص ،تحقيق :محمد سيد كيلاني ،مصطفى البابي الحلبي ،القاهرة ،١٩٦٢م.

-الجرجاني ،عبد القاهربن عبد الرحمن (-٤٧١هـ)،

-أسرار البلاغة ،تحقيق :هـ-ريتر ،مطبعة وزارة المعارف ،استانبول ،١٩٥٤م.

-دلائل الإعجاز ،قرأه وعلق عليه :محمود محمد شاكر ،مكتبة الخانجي ، القاهرة ،١٩٨٤م.

-أبو جعفر الأندلسي ،أحمد بن يوسف بن مالك(-٧٧٩هـ)

طراز الحلة وشفاء الغلة ،تحقيق :رجاء السيد،مؤسسة الثقافة الجامعية

-ابن حجة الحموي ،الشيخ تقي الدين أبي بكر علي(٨٣٧هـ)

خزانة الأدب وغاية الأرب ،تحقيق :عصام شعيتو ،دار مكتبة الهلال ،١٩٨٧م.

-الرازي ،أبو بكرفخر الدين محمد بن عمر(-٦٠٦هـ)،

نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ،تحقيق :ابراهيم السامرائي،ومحمدبركات أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع ،عمان ،١٩٨٥م.

-الزركشي ،بدر الدين محمد بن عبد الله (-٧٩٤هـ)،

البرهان في علوم القرآن ،ط١،قدم له مصطفى عبد القادر،دار الفكر ،بيروت،١٩٨٨.

-السخاوي ،شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ،

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدسي ،القاهرة ،١٣٥٤هـ.

-السكاكي ،يوسف بن أبي بكر بن محمد (-٦٢٦هـ)،

مفتاح العلوم،ط١، ضبط نعيم زرزور ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان،١٩٨٣م.

-السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن (-٩١١هـ)،

*الاتقان في علوم القرآن ،ط١،حققه وعلق عليه:عصام الحرستاني، ومحمد أبو صعيليك، دار الجيل ،بيروت،١٩٩٨م.

*تناسق الدرر في تناسب السور ،ط١،تحقيق :عبد القادر أحمد عطا،دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٩٨٦م.

* التحبير في علم التفسير ،ضبطه وقدم له :فتحي عبد القادر ،دار المنار ،القاهرة ، ١٩٨٦م.

*حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ،ط١،تحقيق :محمد أبو الفضل،ج١،ج٢،دار إحياء الكتب العربية القديمة،عيسى البابي الحلبي وشركاه،مصر،١٩٦٨م.

* جنى الجناس ،تحقيق :محمد علي الخفاجي،المطبعة الفنية.

* شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ،طبع دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ،د.ت

* فتح الجليل للعبد الذليل ،ط١،تحقيق:عبد القادر أحمد،دار البشير ،عمان،١٩٩٢.

* قطف الأزهار وكشف الأسرار،ط١،تحقيق :أحمد بن محمد الحمادي،اصدار وزارة الأوقاف ،قطر ،١٩٩٤

* المزهر في علوم اللغة وأنواعها،شرحه:محمد أحمد جاد الله وآخرون ،دار احياء الكتب العربية،عيسى البابي الحلبي

* معترك الأقران في إعجاز القرآن ،ط١،ضبطه :أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان،١٩٨٨.

* نظم البديع في مدح خير شفيع ،تحقيق :علي محمد معوض وآخرون ط١،دار القلم العربي ،حلب. ١٩٩٥.

-الشوكاني ،محمد بن علي (-١٢٥٠هـ)

البدر الطالع بمحاسن القرن السابع ،ط١،دار الفكر ،دمشق،١٩٩٨م.

-الطيبي،شرف الدين الحسين بن محمد(-٧٤٣هـ)

التبيان في البيبان ،ط١،تحقيق :توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله ،مطبعة ذات السلاسل ،الكويت،١٩٨٦

-العسكري،ابو هلال الحسن بن عبد الله (-٣٩٥هـ)،

الصناعتين الكتابة والشعر ،تحقيق :علي البجاوي ،ومحمد ابو الفضل ،مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ،مصر،١٩٧١.

-ابن العماد الحنبلي ،ابو الفلاح عبد الحي الحنبلي(١٠٩٠هـ)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب،ط١،منشورات محمد علي بيضون ،دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٨م.

-الغزي ،نجم الدين ،

الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة،حققه:جبرائيل جبور،المطبعة الأمريكية ، بيروت،١٩٤٥م.

-القزويني ،جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (-٧٣٩هـ)

الإيضاح في علوم البلاغة،مكتبة النهضة ،بيروت ،١٩٦٦م.

* التلخيص في علوم البلاغة ،شرحه :محمد هاشم دويدي ،دار الجيل ،بيروت١٩٨٢م.

-الكتاني ،عبد الحي بن عبد الكبير ،
فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات،ط٢،اعتناء :احسان عباس،دار الغرب،بيروت،١٤٠٢هـ.

-ابن مالك ،بدر الدين ابو عبد الله محمد ابن جمال الدين الطائي(-٦٨٦هـ)،
المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ،ط١،المطبعة الخيرية،١٣٤١هـ.

ب-المراجع

- أحمد موسى ،الصبغ البديعي في اللغة العربية ،دار الكتاب العربي ،القاهرة ،١٩٦٣م.

- أحمد الشرقاوي اقبال ، مكتبة الجلال السيوطي ،مطبعة دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ،١٩٧٧م.

-أحمد مطلوب ،البلاغة عند السكاكي ،ط١،مطابع دار التضامن ،بغداد ،١٩٦٤م.

* البلاغة والتطبيق ،ط١،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي العراق،١٩٨٢م.

*فنون بلاغية ،ط١،دار البحوث العلمية ،الكويت ،١٩٧٥م.

• مناهج بلاغية ،ط١،وكالة المطبوعات الكويت ،١٩٧٣م.

-بديع اللحام ،الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي وجهوده في الحديث وعلومه،ط١،دار قتيبة ،دمشق ،١٩٩٤م.

-جرجي زيدان ،تاريخ آداب العربية،منشورات دار مكتبة الحياة ،بيروت ،١٩٩٢م.

-رجاء عيد، فلسفةالبلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف،الاسكندرية ،١٩٧٩م

-سعدي أبو حبيب، حياة جلال الدين السيوطي من المهد إلى اللحد،ط١،دار المناهل ، دمشق،١٩٩٣م.

-طاهر سليمان حمودة،جلال الدين السيوطي:عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي،ط١،المكتب الإسلامي ، بيروت ،١٩٨٩م.

-عبد العال سالم مكرم،جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية،ط١، مؤسسة الرسالة ،بيروت، ١٩٨٩م.

-عبد الفتاح لاشين ،البهاء السبكي وآراؤه البلاغية والنقدية،ط١،دار الطباعة المحمدية ، القاهرة،١٩٧٨م.

-عبد الوهاب حمودة ،صفحات من تاريخ مصر في عهد السيوطي ،الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة.

-عدنان محمد سليمان،السيوطي النحوي، ط١، دار الرسالة للطباعة ،بغداد ،١٩٧٦م.

-قرشي عباس دندراوي ،أدب السيوطي ونقده ،دار المعارف ،مصر

-محمد بركات أبو علي ،الصورة الفنية عند بهاء الين السبكي :مكتبة الرسالة ،الأردن، عمان،١٩٧٩م.

-محمد بركات أبو علي ،كيف نقرأ تراثنا البلاغي ،ط١،دار وائل للنشر ،عمان ،١٩٩٩م.

-محمد أبو الفتوح ،جلال الدين السيوطي منهجه وآراؤه الكلامية ،دار النهضة العربية، بيروت.

-محمود رزق سليم ،عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ،مكتبة الآداب ، ١٩٤٩ م.

-مصطفى الجويني ،البلاغة العربية بين التأصيل والتجديد، منشأة المعارف ،الاسكندرية، ١٩٨٧.

-مصطفى الشكعة ،جلال الدين السيوطي مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية ،ط١،الدار المصرية اللبنانية ،١٩٩٤م.

جـ- مؤتمرات وبحوث:

- ندوة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب حول جلال الدين السيوطي ،١٩٧٦ الهيئة المصرية العامة،١٩٨٧م.

-ندوة الايسيسكو احتفاء بذكرى مرور خمسة قرون على وفاة جلال الدين السيوطي، ١٩٩٣ منشورات الايسيسكو ،١٩٩٥م.

ABSTRACT

Abstract

Jalal Eddin Al-Soyouti (٩١١ AH) and his Efforts Rhetorics

Prepared by:

Omar Rashed Hasan

Supervised by:

Professor. Mohammed Barakat Abu Ali

The Imam, Jlal Eddin Al-soyouti, with all what he left to us of references and books on the various humanitarian knowledge, is one of the few encyclopedic scholars who intensively contributed to the restructuring of Arab heritage; thereby constituting a splendid heritage library, enriching and sufficing the readers.

Arabic rhetorics occupied a large portion of his authored books, as he included in many of these books, which ranged from the specialized authoring in rhetorics, such as "Oqoud el-joman" and explanation thereof, "Al-Bade'iah", "Jana el-jenas" and "Itmam El-Diraya", to those in which the rhetorics topics were among the Holy Quran inimitability set and its sciences, such as "Al-Itqan fi Uloom el-quran" and other books on inimitability.

This research was set for studying such efforts in rhetorics by Al-soyouti, introduction of his topics and the mode of dealing, as well as demonstrating the excellence aspects and points of strength and weakness.

On the way to approach this end, the research was conducted consisting of an introduction and three chapters. The introduction was devoted for a brief description of Al-Soyouti, his raising and environment. Within this part, I introduced his books which dealt with

rhetorics, both where rhetorics were the main or partial topics of.

Chapter one was allocated to investigate the rhetorical resources of Al-Soyouti, and found a variety of them. In this concern, I examined the most remarkable books that blatantly influenced the writing methodology of Al-Soyouti.

In chapter two, I studied the Arabic Rhetorics of Al-Soyouti in his specialized books, most important is "Sharh Oqoud el-Joman". I tackled it with analysis and discussion, and underscored the rhetorical aspects in it, such as semantic, eloquence and metaphors.

In chapter three, I discussed the Quranic rhetorics with Al-Soyouti, as shown in his books the Quran sciences and inimitability. I demonstrated a distinction in investigating this aspect of rhetorics both on theoretical and analytical levels.

In conclusion, I have shown the findings produced by the rhetorical efforts of Al-Soyouti. It might be claimed that Al-Soyouti, even though he was not innovative in structuring Arabic rhetorics, nevertheless, he was pioneer in integrating and presenting the rhetorical cognition, particularly, those aspects related to the Quranic text.